اليـــاس مخلـــوف

تحـقـيــــق

مجموعة من رسائل القاضي الفاضل

(القاضــي الفاضــل عبــد الرحــيم البيساني)

(٥٢٩ — ٥٩٦ هـ.)

رسالة تقدم بها المحقق الى الدائرة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت
للحصــول علــى درجــة "اســـتاذ علـــوم."

بيروت ، الجامعة الاميركية
حزيــران ١٩٦٧

فهرس

المراجـــــع

ابـــــن الاثيـــــر : الكامل في التاريخ : تصحيح عبد الوهاب النجار : نشر الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ.

ابـــن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٥ هـ .

ابـــن خلـــدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . سنة :

ابـــن خلكـــان : وفيات الاعيان : مطبعة السعادة بمصر . سنة :

ابـــن شاكـــر الكتبي : فوات الوفيات : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : مطبعة السعادة بمصر . سنة ١٩٥١ م.

ابـــن شامـــة : الروضتين مطبعة وادى النيل بمصر القاهرة سنة ١٢٨٧

ابـــن العماد الحنبلي : شذرات الذهب : مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

ابـــن القلانســـي : ذيل تاريخ دمشق : مطبعة الاباء اليسوعيين ١٩٠٨ م .

ابـــن كثيـــــر : البداية والنهاية : مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر . سنة ١٣٥١ هـ

ابـــن منظـــــور : لسان العرب : دار صادر ، دار بيروت ١٩٥٦ م.

ابـــن واصـــل : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب : تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، سنة :

ابـــو تمـــام : الديـــوان : تحقيق محمد عبده عزام : دار المعارف. سنة

ابو العـــلاء المعرى : سقط الزند : دار صادر ، دار بيروت . سنة

ابو فراس الحمدانـــي : الديوان : سامي الدهان : ١٩٤٤

ابو الفـــرج الاصفهانـــي : الاغاني : دار الثقافة : بيروت ١٩٦٢ .

الجاحـــظ : البيان والتبيين : تحقيق حسن السندوسي سنة ١٩٣٢ م.

الحريري : المقامات ، المطبعة البهية ببولاق ، مصر ١٣٠٠ هـ

امرؤ القيـــس : الديوان : دار صادر ، دار بيروت . سنة ١٩٥٨

زهيـــر بن ابي سلمى : الديوان : تحقيق كرم البستاني : مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤ .

السكـــرى : شرح اشعار الهذليين : تحقيق عبد الستار فراج : ~~مكتبة دار العروبة~~ مطبعة المدني القاهرة. سنة

السبكـــي : الطبقات : المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ

طرفـــة بن العبـــد : الديوان : تحقيق كرم البستاني ، مكتبة صادر ، بيروت ، سنة

عمر بن ابي ربيعـــه : الديوان : دار صادر ، دار بيروت . ١٩٦١ .

عنتـــرة بن شـــداد : الديوان : تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي ، سنة

../..

العماد الاصفهاني الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر : قسم شعراء الشام : تحقيق الدكتور شكري فيصل : المطبعة الهاشمية بدمشق ١٣٧٨ هـ .

العماد الاصفهاني الكاتب : خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر ، حققه ونشره امين ، ضيف ، عباس . سنة

العماد الاصفهاني الكاتب : قسم شعراء العراق : تحقيق محمد بهجت الاثري وجميل سعيد ١٣٧٥ هـ .

القلقشندى : صبح الاعشى : المطبعة الاميرية بالقاهرة. سنة ١٣٣١ هـ

القرآن الكريم .

المقريزى الخطط : مطبعة النيل ، ١٣٢٥ هـ .

محمد بن عبد ربه : العقد الفريد : شرحه وضبطه : امين، الزين ، الابيارى القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ م.

الميداني : مجمع الامثال : المطبعة الخيرية ١٣١٠ هـ .

المتنبي : الديوان : دار صادر ، دار بيروت ، سنة

النويرى : نهاية الارب : مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

ياقوت الرومي : معجم البلدان : دار صادر ، داربيروت سنة ١٩٥٥ .

ياقوت الرومي : معجم الادباء : مطبعة عيسى البابا الحلبي وشركاه بمصر . سنة

مقدمة

يقارب عمر هذه المخطوطة السبعمئة سنة . فهي مخطوطة قديمة استحصلت على نسختها الاصلية من مكتبه الجامعة الاميركية في بيروت بعنوان "كتاب فيه من كلام الفاضل" للقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني . وقد نسخها ابن نباتة بعد وفاة القاضي الفاضل بما يقارب المئة سنة. فكان علي ان اقرأها واعيد نسخها من جديد كمرحلة اولى من عملي في تحقيقها ، مما وضعني امام صعوبة فائقة اعتقد ان بقاء بعض الكلمات غير مقروءة لحد الآن ، رغم الاستعانة بالدكتور محمد نجم مرشدى في هذا المجال ، انما هو الدليل الواضح على هذه الصعوبة التي صاحبت عملي في التحقيق .

تتألف هذه المخطوطة من رسائل مختلفة كان قد كتبها القاضي الفاضل في عهد صلاح الدين الايوبي الى الملوك والامراء ، عندما كان رئيس ديوان الانشاء في الديوان الصلاحي المذكور . وهذا ما اضطرني الى الانعكاف طويلا في المرحلة الثانية على مراجعة الكثير من الكتب المطبوعة ، ودراسة المخطوطات الاخرى التي الفها القاضي الفاضل بالذات ، والتي تحتفظ بها الجامعة الاميركية بشكل افلام مصورة ، بغية مقارنة هذه بتلك واستخراج ما يتفق من نصوص رسائل هذه الكتب والمخطوطات مع رسائل او اجزاء الرسائل التي اعمل على تحقيقها في هذا الصدد . وقد عثرت على شيء من ذلك ، كاجزاء متناثرة هنا وهناك ، كما سيأتي ذكره في باب آخر خاص .

اما المرحلة الثالثة ، فكانت اعادة قراءة المخطوطة بمساعدة الدكتور نجم المرشد ، وتعيين المواضع التي هي بحاجة الى تحقيق ، اذ وجدنا ان المخطوطة قد حشيت حشوا باسماء الاعلام ، والآيات القرآنية ، وابيات الشعر الكاملة او المجزأة او المنثورة ، وما سوى ذلك من اسماء الامكنة ، والامثال ، والمعاني الغريبة .

وما انتهينا من تحديد مواضع البحث والتقصي ، حتى رحت افتش عن ذلك واحقق فيه ، فاستخرجت الآيات القرآنية وبعض الابيات الشعرية ، والامثال ، والمعاني ، واسماء الامكنة ، كما فعلت ذلك ايضا بالنسبة الى اسماء الاعلام ، مع فرق واحد بسيط ، هو ان هذه

.../...

الاعلام لم تكن كلها ميسرة لي ولعملي ، فحققت العدد الكبير منها ، وتركت القليل الذى التبس علي ، لان القاضي الفاضل اهتم بتنميق الكلام ، وصياغة القول ، والتحسينات اللفظية ، وما الى هنالك من السجع وغريب الالفاظ ، اكثر مما اهتم بتوضيح الفكرة التي كان يهدف اليها او اسم العلم الذى كان يذكره في سياق البحث. اقول ذلك لأدل على انه لم يكن ليوضح الفكرة ولا ليجعل منها المحور الذى يجب ان تدور عليه الرسالة وتنطلق منه ، كما انه لم يكن ليهتم بذكر كل اسم من الاسماء بكامله ، او قل بلقبه الكامل الصحيح ، او مختلف القابه التي قد تكون له .

فهناك " الضياء " مثلا ، وهناك " تاج الدين " و " عماد الدين " والولد الفلاني ، وفلان " الذى لم يحضرني نعته الآن " الخ . . . وكم في هذه الاسماء من المعميات ، وكم من " عماد الدين " و " تاج الدين " عندنا ؟ ! وكم من الاولاد الذين قد يستخدمهم القاضي الفاضل ، او سواه في مهمة صغيرة ، او قد يذكرهم ، بذكر بعض الشخصيات الاخرى دون ان يكون قد افرد التاريخ لهم صفحة تحدثنا عنهم وتنقل الينا اخبارهم . وهات بعد ذلك ما تيسر من التفتيش والتنقيب ، بل التكهن والتخمين ، عدا عما هنالك من الاسماء الكاملة التي لم اعثر على اثر لها على الاطلاق في جميع المصادر التي استعنت بها .

اما المرحلة الرابعة والاخيرة ، فقد عمل الدكتور نجم على مساعدتي في ترتيب وتنظيم ما رآه من اضطراب في تسلسل الصفحات الاصلية للمخطوطة ، مما اضطره الى قلب وضعها رأسا على عقب ، وارجاعها لي ، مشكورا ، لأتم ما عمل على تصحيحه وتنظيمه ، ومن ثم طباعته والتقدم به الى الدائرة العربية الموقرة .

وها انا اضع نتيجة هذا الجهد بين ايدى اساتذتي الكرام ، بل اراني على باب الكهف المظلم الذى حبست نفسي فيه اشهرا عديدة ، آملا ان اخرج منه الى النور ، واعيد سيرتي في الحياة ، واكون نفسي في كل ما افكر به واكتبه .

الياس مخلوف

عمليـة مقارنـــة

اجزاء الرسائل التي وجدت في مصادر اخرى ، ومواضع هذه الاجزاء من المخطوطة التي بـين ايدينـا

في مخطوطة " مختارات من كلام القاضي الفاضل " وهي فيلم مصور في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت تحت رقم Arabic I ما يلي :

صفحة ٢٦ : عن اقباط مصر الذين دخلوا الاسلام : مقابل ذلك رسالة ٩٥ من المخطوطة
صفحة ٤٣ : عن الكتاب الذى اغرقته الديمة وبله المطر مقابل ذلك رسالة ٨ من المخطوطة
صفحة ٤٣ : واستوفي شأو السبق .... : مقابل ذلك رسالة ١١ من المخطوطة
صفحة ١٢ : فالاسر ذل ما بعده عزة ..... : مقابل ذلك رسالة ٩٤ من المخطوطة

كتاب فيه من كلام القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانـــي

١

(١) بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الى الملك الافضل [١] رحمه الله

ادام الله دولة مولانا وشيد اركانها ، واعزّ سلطانها ، وعمّر بالسعادة اوطانها ، واعلى على سمك السّماك بنيانها ، واظهر في كل تدبير معجزتها وبرهانها ، ومـــلاء بالوفود والفوائد ايوانها . وردت على المملوك في هذا الوقت المبارك بورودها كتب كريمة ، بل سحب عميمة ، روّضت ساحته والمحل جديب ، وآنست غربته والمفارق لبابه الكريم قريب . وعدّ المملوك (٢) هذه الاجابات اجابة لدعوة صالحة ، فأن الله سبحانه ما زال يسمـــع ويجيب وقبل ، ولا سيما مكان التكرمة من الترجمة ، وبلغ بها الى نحره لانها من التيجان المكرمة ، ثم نقلها الى صوان قلبه فصارت من الازهار المكمة لا من الاسرار المكتّمة ، وبلغ بها كل امنية من الزمان . فمهما اتصل به من نتائج السعادة فمصدره عن تلك المقدمة .

وعرف المملوك ما سره ان يعرّفه من حسن عوائد الله المتناصرة عند هذا البيت الناصرى الكريم ، فما الطافه اليه الا حجيج لا تنقطع وفادته ، وما ملائكة النصر الا جنـد له لا تخل به نجدته (٣) ولله سر في علاه ومطامع العدى ضرب من الهذيان [٢] ، ولسادة هذا البيت النفاذ بسلطان من الله لا يستطاع النفاذ الا بسلطان ، ورجوع هذه الاعداء بغيظها بل رجوع انفسها بغيظها [٣] بشرى باشر بها مولانا من طرفيها : احدهما باخيه الظافر [٤] المباشر والاخر برسوله السائر المبشر . والنصر جار على يد مولانا ولسانه ، وكل

---

(١) هو نور الدين ابو الحسن علي الملقب بالملك الافضل ، وهو ابن السلطان صلاح الدين بن يوسف بن ايوب . ولي عهد ابيه ، وملك دمشق من بعده مدة سنتين ثم اخذها منه عمه العادل . توفي سنة ٦٢٢ هـ (البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣/١٠٨ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر) ولد الملك الافضل ٥٦٥ هـ . (مفرج الكروب ج ٢ / ٤٢٣)

(٢)

(٣) فاظ يفيظ : مات . (انظر مادة فيظ في لسان العرب لابن منظور) .

(٤) باخيه الظافر : الملك الظافر ، وهو اخ الملك الافضل (مفرج الكروب ٢ / ٤٢٤)

احسان ضمن احسانه ، وكل حسنة تنال في الدنيا بسيفه وتوجد في الآخرة في ميزانه . وللسعادة فيه شهادات، وللاسلام سعادات ، وللسعادات به زيادات، فبلّغ الله فيه كل محسب ما يؤثره ، وكفى فيه كلّ ولي ما يحذره، وحمل (٤) الله عن قلب كل عبد بعد عن ظله ، ولم يبعد عن فضله ، ما تحمله من مؤونة بعده عن باب مولانا وجنابه ، فثم القت المنى رحلها ، وجمعت المقاصد سبلها ، واستبضعت المدائح وكان احق بها وأهلها . والمملوك وان قلّت خدمه عن عاداتها ، وابطأت عن اوقاتها ، فما يخون في املائها الخاطر، ولكن ربما خان في ادائها السائر ، وكل كتاب منه يعده مولانا في الشهر واحدا ، فربما كان في عدد ذلك الشهر العاشر . فان سنحت اوقات تشريف المكاتبات فلا يحاسب ، فما جرت عادات مولانا ان يعطي العطايا الا حسانا بلا حساب ، لا سيما والمملوك ممن الصابرين على مكروه البعد والصابر يوفى اجره (٥) بغير حساب [1] ، كما نطق الكتاب ، والرأى اعلى ان شاء الله تعالى .

٢

وكتب اليه في معنى جماز اخي صاحب المدينة
على ساكنها الصلاة والسلام .

اعزّ الله سلطان مولانا وجعل بابه ملاذا ومعاذا للرّائدين والواردين ، والوافدين والقاصدين ، من اهل الدنيا ومن اهل الدين . والهمه من مودة القرى مايستحق به الاجر المضاعف ، والامل المساعف، والفضل المتواصف، وما يوجب له الشفاعة التي عظم الله بها جاه نبيّه يوم لا جاه الا جاه الآخرة ، واظهر بها كرامته فكانت كرامة الدنيا الباطنة وكانت تلك الكرامة الظاهرة، خدمة المملوك ترد الى بحر الجود من يد مولانا لا عدمنا

---

(١) "انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب" (١٠ ك الزمر ٣٩)

جواهرها المنتظمة في الاوراق (٦) فهي انفس قيمة من الجواهر المنتظمة في الاعناق، من يد الشريف الاجل جمال الدين جمّاز وحفزه حافز، مولانا به عالم، ودعاه الى معاودة التثقيل خصام، مولانا فيه حاكم. وهذا (...) [1] فقد كان والده رحمه الله افرده باسمه، وسلّط يده عليه واستغله في حياته ونفع المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها نفعا طاهرا، واخذه له بشرط الحبس موافق فانه يحمي حماها، ويمنع خلاها. ويكف عنها العادية، ويقسم مكرماته حاضرة في الحاضرة وبادية في البادية. وادرك اخاه في امره غيظ ولا بدّ ان يعاود للحق اذا بردت ناره، وتوارى اواره. ويد مولانا عدل لا تبلّغ الاغراض الا ان كانت صالحة، ولا تمضي (٧) القضايا الا ان كانت راجحة، والمملوك يسأل في ملاحظة هذا الشريف بما يقضي اربه، فينجح طلبه. ويمنع من ايقاف وقفه، ويعيد نائبه فقد تحدث برفع يده وصرفه. لا زال مولانا جديرا بالمكرمات يقيم جدارها اذا اراد ان ينقّض، ومليئا بالآمال يمهد مضجعها بأمنه اذا اقض. ان شاء الله تعالى.

٣

وكتاب آخر اليه

ادام الله ايام مولانا واعز دولته وادالها، واعلى يده واطالها، وافادها الممالك الوسيعة وانالها، وثل [2] عروش اعداء سلطانه وامالها، وغدق [3] بنعمائه هموم اهل الهمم وآمالها. لو استطاع المملوك ان يخدم كل يوم بخدمة يسيّر بها رسولا (٨) قاصدا، ويثيب بها حاملا واردا. لكان ذلك من وظائف الانعام التي يلزمه اداؤها، وديون الاحسان الذى يجب عليه قضاؤها. وكان يواصل بخدمه الى ان يملّ، ويكثر الى ان يخلّ، ويستقيم على سنن الواجب الى ان يزلّ. ولو تجدد عنده ما ينبغي ان يبدى ذكره، وان ينهي امره، لما عجز ان يتابع رسله، ولا سدت دون الخدم سبله. فانه لمولانا اعز الله انصاره مملوك لا يتحرر الا بما يوجب باليد رقه، ولا يقتضي نقله من جهة الى جهة تنجر [4] عنقه. فهو مولى

---

(١) لم تمكن قراءتها.
(٢) ثل عروشهم: هدم ملكهم.
(٣) غدق المطر: كثر.
(٤) تنجر عنقه: تضرب عنقه.

هذا البيت والمولى عبد ، وكل ساداته مواليه ومولانا له دائما سيد فرد ، واذا سمع المملوك ان الاحوال مستقيمة، وعرف ان القلوب له سليمة. (٩) وان الوفادات على ابوابه قد انتظمت، والملوك على سقايته قد ازدحمت، والطاعات له من كل جانب قد بذلت، والوصل باسباب مولاته قد اتصلت، وعطاياه قد عمت حتى الملقبين بالملك وشملت، ويده قد وسعت آمالهم على ضيقها ، وكلهم قد غمرته بحارها ، فحاله حال غريقها ، مما يحسب كل عطية اعطيت لغيره الا قد ملاءت يديه ، وكل صلة وهبت لمن سواه الا قد وصلت اليه ، ولا يظن كل حامد لمولانا وشاكر، وكل ذاكر لفضله وناشر. الا انه قد ناب عن المملوك وانجده ، واعانه لسانه واسعده. وقال عنه ما يقوله ، ومشى على النهج الذى اتضح به سبيله فانه مجرد في دين الموالاة المشروعة ، (١٠) قيّم بوظائف الادعية المرفوعة ، مستثمر من المكارم المبذولة ثمرات غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ولما وصل العدل نجيب الدين [1] بلّغه عن مولانا كل حسنة كان يبلغها بأمله ، ويعرفها من فضل مولانا وتفضّله ، وما زاد على ان نقلها من خاطر المملوك الى سمعه ، وحدثه عن مولانا بما هو عارفه من فضل طبعه. الا انه قد جدد له ارتياحا الى ذلك الكرم ، وابتهاجا لشرف تلك الهمة على الهمم . فالمملوك وان بعد عن الخدمة ،فقد قام بها وما قعد عنها ولا فرّط في فرائضها ولا قصر في نوافلها . ولا هو ممن يتبجح بلازم اداه ، ولا بولاء اخفاه ، ولا بثناء ابداه. لأن المتبجح بخدمة ، انما يستزيد نعمة ومولانا قد (١١) وهب منها ما ليس فوقه مستزاد ، او يبرأ من طنة وقد صار من الخدمة كقاب قوسين او ادنى فما كذب الفؤاد [2]. فلا تختلف حالاه في نفع مولانا قريبا وبعيدا ، وربما تكون منافعه في البعد اكثر ورودا واوفر مددا . وما اخل المملوك بواجب اداه اليه الامكان ، ولا معونة اعانه عليها الزمان ، ولا بحسنة اقتضاه اياها سالف الاحسان ، وحفظ المملوك لما يقوله من الكلام فوق حفظ غيره لما يؤكده من الايمان . ومن للمملوك بعمر يتسع في المرتكز ،فيؤدى بقية المفترض . فكان يمني نفسه بعودة ينقشع

---

(١) العدل : ربما كان ابو صالح بن العجمي الحلبي الذى يهجوه العماد الاصبهاني هجاء مرا . وقد كان عدل الخزانة لنور الدين . شتت شمل الملك بعده واستولى بشره . (خريدة العماد : شعراء الشام ج ٢/ ٣٦٩) وقد كثر ذكره في الروضتين لابي شامة باسماء مختلفة : القضب بن العجمي ج ١/ ٢٣٤ اول احداث ٥٧٠) والعدل بن العجمي ص ٢٥٩ ، وابو صالح بن العجمي ص ٢٤٩ .

(٢) تضمين من القرآن الكريم . " ما كذب الفؤاد ما رأى " (سورة النجم ٥٣/ ١١) .

بها قلة لا يطلك الماء دفعها ،ويكحل عينه بغرة لا (١٢) يطك البرق لمعها . ولكن ضاق فتر عن مسير ،وآن اللحاق بصاحبه فلم يبق بينهما الا يسيرا واقل من اليسير. فليخبرنه ان كانت طريقه الى مستقره من الجنة ،بمشيئة الله ،بان مولانا خلفه على اوليائه وجها ويدا ،وليهنئنه بانه ولد والدا وغيره ولد ولدا . ولينشرن في مواقف الصدق بكل حديث لا يحسن كل متحدث ان ينشره ،وليشكرن في مشاهد الحق كل فضل لمولانا لا يبلغ غيره ان يشكره. وليجدن لسانا يستمد ،واحسانا يمد . وقائل الحق مأجور ،كما ان قائل الباطل مأزور . فليحرص مولانا على ان يكثر ما المملوك ناقله ،ويحمله من اخبار السيرة الحسنة ما لا بد انه حامله ،فهذه رسالة (١٣) غريبة قلما يجد مستقلا فيها بالاداء،وتحية الى ابيه رحمة الله عليه عجيبة ويتفادى من حملها اليه اكثر الاحياء . فالمملوك لا يستوحش من تحملها ،بل يستأنس بمرسلها . وعلى مولانا جزاء المملوك عن هذه السريرة التي هو معوّل في محل الصمت على ان يبديها وذلك بان يبلغ القبر الناصرى تحيته (وان لم تكلم حفرة من يزورها [*]) ويذكره عند وضع يده على صفحات صفيحة (سقاها من الغرّ الغوادى مطيرها) [٢] (...........) [٣] ان شاء الله .

٤

وكتب الى العماد الكاتب[٣]

ورد ت مكاتبات كريمة من المجلس العمادى اعزه الله واكرمه (١٤) وانعم عليه ونعمه ،واجرى بما يجرى له الاجر قلمه ،ورفع على السادات الاعلام علمه ،وامتعه بالفضل

~~(*) وان لم تكلم حفرة من يزورها~~

(٢) حمامة بطن الواديين ترنمي سقاك من الغر الغوادى مطيرها (توبة بن الحميّر الاغاني ١١/١٩٨)

(٣) لم تمكن قراءته وهو بمثابة اربع كلمات. . .

(٣) العماد الكاتب الاصفهاني : هو محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن الهّ المعروف بالعماد الكاتب الاصفهاني صاحب المصنفات والرسائل ولد باصبهان ٥١٩ وقدم بغداد ،ومن ثم الى الشام ،ثم صار كاتبا في الدولة الصلاحية . توفي عن ٧٨ سنة . من كتبه " خريدة القصر وجريدة العصر" و " الفتح القدسي " (ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/٣٠) وتذكر له كتب اخرى " السيل على الذيل" ونصرة الفطرة في اخبار الدولة السلجوقية" وله ديوان رسائل وديوان شعر . (وفيات الاعيان ٤/٢٣٦)

الذي الهمه وعلّمه، ولا اخلى منه الدهر الذى لولا وجوده لفرض الناس عدمه. ووقفت على متضمناتها، وقذفت سيئات الايام بحسناتها، وازريت على عقود الاوائل بمنتظماتها ومثمنلتها، وكانت ثلاثة فعكفت من غير كفر على لاتها وعزّاها ومناتها [1]. وارّجت بتلك الانفاس الطيبة الارجاء، ودخلت جنات الفضل اتبوأ منها حيث اشاء. واستدمت الله بقاء هذه الجملة الجميلة، واستمتعت بتلك المحاسن الجلية الجليلة. وكم فيها من فصل كطعنه فيصل، قد انتظم فيها الدر المفصل (١٥) والفضل بيد الله يؤتيه، ويزيد في الخلق ما يزيد في معانيه، وما تتعاطى الآمال ما الله معطيه. الاخبار عرفها وقد انقطعت بالوفاة الناصرية موادّها، وقلّت الرسل والمكاتبات المستفادة بها. وصار المحمول منها على السنة السفّار، ومستبضعات التجار، وما يستغنى من سيدنا عن ان ينعم باخبار البلاد البعيدة والولايات الطارفة وما تحدثه الاقدار، وما يقلّب الله به الليل والنهار، وما يتعرف من اخبار اهل العدل والجور، اعني اهل الجنة والنار. فاذا اشتملت التواريخ وانتظمت السيرة على هذه الاحوال كانت مظانّ العبر، ودلائل الثبوت او الغير، فكم (١٦) حسنة استفيدت من اثر منقول، وخبر مقول، فاثيب راويه وناسخه، وشكر سارقه ومنتحله وسالخه. وعلى هذا الذكر فان كان سيدنا تمم التاريخ الناصرى، فيصل ما عندى منه ويكمل ما انعم به. وتركته في دمشق انتظارا وغيرة على تلك المحاسن ان يتناولها البلاغ، قبل ان تبلغ الفراغ. العدل [2] وصل حفظه الله ومرض وثقل ثم منّ الله بعافيته ووهبها، واتى بلطيفة من لطائف صنعه ما حسبها. وعلى ذكر المرض فالخواطر مشغولة بامر سيدنا في هذا الاقدام الذى اقدم فيه على نفسه، وحكم الحديد في جلده. ومتى صارت له هذه الجسارة بعدى (١٧) وفديته وفدته احبّاؤه " فان اشفقوا مما اقول فبي وحدى. " وقد كان الصبر على تطاول المرض، اولى من هذا الهجم على هذا المضض. وما اخشى الا ان يعسر التحامه، وتتمادى ايامه. فاما العاقبة فغير مخشية ولله الحمد، فيعرفني سيدنا ما استأنف من التدبير فيما بعد.

---

(١) من الاصنام التي كان يعبدها العرب الجاهليون . ٧

(٢) سبقت ترجمته — وهو ابو صالح بن العجمي . ص ٤ .

فصل : والاولاد الناصرية السائرون وصلوا ، وتلقتهم العيون بمائها والقلوب بنارها وجددت حروب الايام رفع الاقدار. واما الضائقة بدمشق فكل البلاد دمشق ولا سيما مصر في هذا المعنى . فان الاموال بها قصرت بل عدمت، ووجوه الجبايات بها تغيّرت بل تجهمت والطلب كثير على قليلها ، والنجع اليها ما اسفرت عن مأمولها . واهم ما عندى حال (١٨) علم الدين ابن طلحة والى الآن ما اسفرت سفرته ، ولا اوصلته الى المراد هجرته . وعطاء السلطان ما كان عزيزا ، فان لقاءه ابقاه الله لا زال عزيزا . ويده كريمة ووجهه ند ، فلا عدم من وجهه اكرم وجه ومن يده اكرم يد . واحوال سيدنا تاج الدين[1] ببغداد انا مستزيد من سيدنا شرحا لها على ان يكون شارحا للصدر، وايضاحا لها على ان يكون سارا للسر. والله يحوطه ويكفيه ويعافيه ويعفيه . وما اشار اليه مما يخاف بسببه ، ويتبرأ من نسبه . فقد انقضى ما بيننا (١٩) فكيف لا يسكن الدهر[2] . وقد انقطعت الوصلة . فكيف لا ينقطع الذكر. والله المستعان . واما الاقطاع الحراني[3] فما يؤنس من جهته ان لم يكن في غد الاذى فبعد غد . ولا يبلغ سيدنا الضيعة بما يقتضيه ان يسيء صنعا ، ويدع للصلح بقية فاليه يدعى . وفي كتب سيدنا فصول مستعذبة، واحاديث مطربة اعلم انها تروّح على الفهم العزيزى اللطيف، الهم المطيف . فاجعلها في وقت الاجتماع تحفا ، واهدى منها طرفا . وقصدى ان اثبت بشكر سيدنا لهمته العالية فيما استأنفه من انعام وابقاه

---

(١) هو ابو عبد الله محمد بن ابي السعادات عبد الرحمن بن محمد بن مسعود ... السعودى الملقب تاج الدين الخراساني البندهي الفقيه الشافعي . كان اديبا فاضلا اعتنى بالمقامات الحريرية فشرحها واطال شرحها . كان يعلم الملك الافضل ابن صلاح الدين . ولد ٥٢٢ هـ. وتوفي ٥٨٤ بمدينة دمشق . (وفيات الاعيان : ابن خلكان . مطبعة السعادة، مصر . ٤ / ٢٤) .

(٢) تضمين من بيت شعر لابي صخر الهذلي :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ولما انقضى ما بيننا سكن الدهر

شرح اشعار الهذليين للسكرى : تحقيق عبد الستار فراج . ص ٩٥٨ .

(٣) نسبة الى حرّان ، وحران مدينة عظيمة مشهورة وهي قصبة ديار مضر، وهي على طريق الموصل والشام والروم. وسميت بهاران اخي ابراهيم عليه السلام لانه اول من بناها فعربت فقيل حرّان . (معجم البلدان ياقوت) .

من اقطاع فنحن نجلب اليه ما ينفق لديه وما نترمق[1] به عليه، (٢٠) ادام اللـه نعمتـه تقوم مقام الاجتماع به واللقاء له والمناقشة معه والخلوة به والاسترسال اليه. وكأنـني سمعت منه وكأنه سمع مني، وكأني ما غبت عنه وكأنه ما غاب عني. والسعادة العادليـة والبشائر عنها مقرة لعيون الاولياء، مرغمة لأنوف الاعداء، مؤذنة بان هذا البيـت مستقبل النعماء مستقل البناء. واما ابن ظهير الدين ابن العطار[2] وما تحققت نعته الآن وعزمه على الوصول الى مصر فان اشرت به فكأنني غررته، وان لم اشر به فكأنني ابعدته. وما اقول في هذا ما يؤثر مني، ولا ما يعاد عني (٢١) والشروع في الحمام على اليمن والبركة وسررت بحاجة سيدنا الى عمارة حمام، وعلمت ما وراء هذا من نشاط الحركات المعدومة في غيره. ولا يسمع سيدنا الحديث في حسن فانه ان ادلّ فعلى العادة، وان صـاد فالبفاثة والجرادة، وما يستثني بمسرة في الدهر الا بكتب سيدنا،

فما بقيت من اللذات الا   محادثة الرجال ذوي العقول[3]

فلا يقطعنا هذه اللذة ولا يحل بيننا وبين هذه الحسنة منعما.

فصل: بعدما كتبت به الى المجلس السامي ادام الله نعمته، واعلى رتبته. نفذت الخلعة العزيزة وما معها من كسوة وقد سلمتها الى بعض اصحابنا التجار ليوصلها، ومـا رأيت (٢٢) انفاذها مع من يذيع امرها، ويشيع ذكرها، حوطة لسيدنا لئلا تكون عطيـة تمنع عطية وقضية تعوق قضية. فان رأى الشهرة فبلسانه الجهر، وان رأى السترة فما خرج الحديث عن السطر.

---

(١) نترمق: من ترمق الماء او ما شابهه اى شربه مرة بعد اخرى وهنا تعني الاستفادة من عطايا السلطان.

(٢) ابن ظهير الدين ابن العطار: لم اجد الا ظهير الدين بن العطار وهو صاحب المخزن على ايام علاء الدين تنامش، وكان المخزن خاص بالخليفة، هكذا ورد هذا الاسم في الكامل ج ٩ / ١٣٤. وفي الروضتين " صاحب المخزن ظهير الدين ابـي بكر بن العطار (ج ٢ / ١٤) وفي خريدة الشام: ظهير الدين الحسن بن عبـد الواحد صاحب المخزن (ج ١ / ٦١) وفي مفرج الكروب، ان الخليفة امر بالقبـض عليه لما كان قد صدر عنه في ايام ابيه من الظلمة للرعية والحيف وضرب بالعصـي حتى مات سنة ٥٧٥ (٢ / ٩٠).

(٣) فما بقيت من اللذات الا محادثة الرجال ذوي العقول

٥

وكتب اليه

وردت ادام الله نعمة المجلس السامي وعافاه في سمعه وبصره ،ولا اعدمه من لطافه ما يطيب جنى ثمره ،ومن صنعه ما يغلي قيمة جوهره ،ولا اخلى العيون من نظره ، والاسماع من خبره = كتبه على يد ابن الظهير العطار[1] ،بعد ان تأخرت دهرا ،ولا اقول شهرا . فكل يوم دهر ،وكل ساعة شهر . ولقد همت لتأخرها في كل واد مع الافحام ، وسرت اطلبها في كل ناد (٢٣) مع المقام ،وعتبت الليالي في تأخرها فقالت هي الايام . وظننت ظنونا شكرت الله على اخلافها ،وابتهجت بظهور خلافها . ولا اطيل بتكرارها عليه ،وايرادها لديه . فالحمد لله على ما منّ به من عافيته حيث الاعلال طوفان ، وسلامته حيث الزمان عدو لسادات اهل الزمان .

واما القصيدة فقد كانت مسرتي بدلالتها على راحة سره ،وانشراح صدره ،وفيض بحره ، اكثر من مسرتي بما خلدت من ذكره ،وقلدت من فخره . فهو ذو سعة ينفق فيها ولا يخاف الاقتار ،وذو لجة يزخر والقول رشاش وقطار ،ومن كان بحرا له قذف اليه الدر الكثار ،(٢٤) وما ضره ان ينتظم الاكفاء وان اطال تعنيس[2] هذه الابكار . والله يعين على قضاء الحقوق العمادية فانها الحالة ديونها ،الواثق بمسامحته زبونها . ان شاء الله تعالى .

فصل : الدينار اليوم بمصر مثل ما هو في كف البخيل ،وعذر الكريم عنه انه عنده قليل . القصيدة القافية بها القافية سرد شجاع يدرع الاحساب ،وهبة كريم ينفق بلا حساب . وقافيتها مع الهاء حكاية صوت المقهقه فرحا ،بما بشرت به من مقدمه ركاب المجلس فكيف له به ومتى الاياب .

٦

وكتب اليه

(٢٥) وصل كتاب المجلس السامي حرس الله بنيته ،وشكر في الخير فعله ونيته ،وقرن بالتوفيق

---

(١) سبق الحديث عنه ، ص ٨ .

(٢) من العشق اذا طال مكث الفتاة في بيت اهلها بعد ادراكها ولم تتزوج

سرعته وونيته[١]، وادام الى الامال رقيه وانفذ فيها رقيته. والكتاب في ورق بغدادى، ودلني هذا على انفاقه الورق من الحاصل، على ان محمول الورق الدمشقي والحموى قد قصر عنه الحاصل. وابت الايام ان تبقي عهدا، واذا ابقت سيدنا فقد جعل لها في قلوب الذين آمنوا ودا. ووقفت على ما ذكره من طوارئ الاحوال ومتجدداتها، وشكرت الهمة بها على ما بين الرسل الحاملين لها من فتراتها. والاقطاع مستمر وما تجدد فيه ما يشغل القلب. وحسن جارٍ على عادته (٢٦) وقد نالت منه السن وقد عوده سيدنا عادة، ان سلك بـه في غيرها، نكص وضج، وتفادى واحتج. والصبر على من عرف ايسر من استئناف التجربة. وكنت موعودا من سيدنا باشياء من محاسن قوافيه، ونفثات فيه. فظن انه بالمطال ينسيني، وليس كذلك بل يغريني. فينعم بالتعويـل في ذلك على الجمال الواسطي[٢]، ذكره الله بخير، فليكن الواسطة في تنجز هـذه العقائل، والماشطة في تحليتها بخطه الواضح الذى يقرأ سحبانه باقل[٣] وكتـب سيدنا خلف من رؤيته فلا تجمع على مفارقه بين الفرقتين، ولا يقسم قلبي الرقيق بين الرقتين.

٧

وكتب اليه

وصل كتابا المجلس السامي اطاب الله ثناءه، واطال بقاءه، وادام نعماءه واسعد آراءه، وارشد انحاءه، وعجل شفاءه، وحمى من تهجم النوائب فناءه. وعرفت

---

(١) ونيته : فتوره وابطاؤه.

(٢) الجمال الواسطي : لم اعثر على ما هو قريب من هذا الاسم الا في فوات الوفيات باسم جمال الدين الواسطي : وهو عبد الرحمن بن محمد بن عمر بن ابي القاسم جمال الدين الواسطي المعروف بابن السنبنيرة الشاعر المشهور. ولد ٥٤٧ وتوفي ٦٢٦، مدح الملك الظاهر وطاف البلاد وكان عسر الاخلاق صعب الممارسة (فوات الوفيات لابن شاكر الكبتي ١/٥٥٠)

(٣) سحبان : رجل من ربيعة من بني بكر كان لسنا بليغا. وباقل اسم رجل يضرب به المثل في العي. ويقرأ سحبانه باقل اي يقرأ بلاغته العيي. (لسان العرب : ابن منظور مادة باقل.)

منهما وصول ما كتبته وما كنت سيرته . وتضمن من المتجددات ما لا يجلى في أحسن من بيانه ، فلو عرف الزمان تجميله لا فعاله لما عرف خلافا من زمانه . واما الدين الذى عند "عمر سلاح دار" فانه موسر من العسر، مثر من الفقر . لا يوصل منه الا الى دربة بالخصام وجرأة على الحبس، وهذا مال لو أراد صاحبه ان يعود اليه لما اخرجه عنه . ومع هذا فلا يأس ولا بأس . ولو جدد سيدنا الذكر بالمجلس العزيزى أعزه الله بأشياء خفيفة ومقاطع على الحفظ سهلة وغزليات رقيقة ودوبيتيات[1] غريبة لكان وجها لتجدد الذكر ، (٢٨) والقيام بالشكر .

٨

وكتب اليه جوابا عن كتاب بله المطر .

كانت كتب المجلس السامي لا جف له قلم ، ولا عطلت منه يد كرم ، ولا برحت الايام تلقي اليه بالسلم ، ولا زالت بيض الديم باقنيته تعاد وخضر النعم . قد اغبت وأبطأت ، وأنشأت من خواطر الافكار ما أنشأت . وحملت ذلك على ان الشتاء يقطعها اتصاله ، والطريق يضيق على السالك مجاله . وقنعت بما ورد في كتابين أفضلين من خطه الذى هو عنوان السلامة ، لا زالت مستقرة بمستقره (٢٩) مستودعة في كنف شكره . فلما وصل كتابه على يد "جعد الصخرى" وصل وقد اغترفته الديمة ، وحاكمتني فيه فحكم لها به بشفعة صدوره عن يده الكريمة . فعفت اسطره بمعارضها جوهره فوقف عليه القلب يسائله طللا ، ولبسته العين ترقعه[2] سملا . ولكن اسمال سيدنا جديدة ، واطلاله بروج مشيدة . فمنها ما وصلت الى فهمه ، ومنه ما لم احظ بعلمه . فصرفت الى الشتاء العتب ، وقلت ما وفى ماعون السحب بما اتلف من ماعون هذه الكتب . اما المتجددات فيعهدها بعيد ، وتاريخها قديم . والانعام بها مستدام ، والقلب بكل ما يصدر من جهته مستهام . (٣٠) والاقطاع

---

(١) دوبيت لفظ مركب من كلمتين . دو : فارسية بمعنى اثنتين . بيت عربية بمعنى الوحدة الشعرية . ويسميه العرب الرباعي . ووزن شطر البيت فيه اربع تفاعيل مختلفة . ((الموسوعة العربية الميسرة ، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر) .

(٢) لعلها ترمقه .

ما تجدد له ذكر يخشى ، ولا خطبة جندى وسواه كنكاح ام خارجة[1] . وما تزال العين طامحة الى كتب سيدنا حتى تصل فتقر نظراتها ، والنفس جامحة الى طارقها حتى ترد فتسكن خطراتها . فان رأى توفير الحظ منها مع الامكان ، فانه يتبع معروفا بمعروف واحسانا باحسان . لا برح كذلك ان شاء الله تعالى .

٦

وكتب اليـه

ورد كتاب المجلس اعلى الله يده ، وانجح مقصده ، واصفى مورده ، واسعد يومه وامسه وغده ، وسوغه اهنأ العيش وارغده . مستفتحا بما جرت به عادة انعامه، على يد اقلامه . لا عدمت (٣١) تلك العادة، ولا نقلتها الايام الا الى الزيادة . وما تلك الخواطر مما يخاطر في مباراتها ، كما ان تلك المحاسن مما لا يطامع بمواراتها ولا بممـاراتها . فذلك مما عيلت دونه القضب[2] ، وغيضت دونه القلب[3] . ومما بشرني ان صدور هذه البدائع عن خاطره يدل على انبساطه ونشاطه ، وان الجنا لا يجني ولا يشتط على شطاطه . وانعم بشرح متجددات لا تسمع الا من جهته ، ولا تعـرف الا من كتابه . فالتقصي صناعة ، وهو في كل صناعة ذو براعة . وتفاصيل الاحوال انما كانت تعلم في سوق الخدمة الناصرية حيث كانت تجلب اليها الطرائف، وتقام من البعداء والقرباء لها الوظائف. (٣٢) فقد فقدنا فيما فقدنا الاخبار، ودرست فيما درس من الآثار . والحمد لله على كل حال ،

---

(١) "ام خارجة هي عمرة بنت سعد بن عبد الله بن قدار بن ثعلبة . كانت ذواقة تطلق الرجل اذا جربته وتتزوج آخر ، فتزوجت نيفا واربعين زوجا وولدت عامة قبائل العرب ، وتزوجت بكر بن يشكر بن عدوان بن عمرو بن قيس عيلان فولدت له خارجة وبه كنيت." هذا ما جاء في مجمع الامثال للميداني ص ٢٣٥ ، بالصيغة التالية : "اسرع من نكاح ام خارجة"

(٢) ، (٣) القضب : السيوف ، والقلب : الآبار

وارجوا ان لا نكون فقدنا الا القيل والقال .

ومن فصل : ما طال لسان العذر الا لما قصرت يد القدرة وقد حدثت بعد الامور امور ، وعلى مقدار ايقاع الزمان ولا يتهم الاجتهاد فما منه تقصير ، ولا يستكثر العذر فما فيه تكثير .

١٠

وكتب اليه

ورد = من المجلس السامي العمادى العزيزى ، لا زال عزيز القدر عزيز البر ، مقتضبا للمراشد ، مقتضيا للمحامد ، مقرون المساعي بالمساعد ، ميمون المصادر والموارد = كتابان احدهما من يد محمود الاصفهاني [1] ، والاخر من يد قايماز [2] مملوكه . وكل ما يرد من هذا الجناب ، (٣٣) على [3] الظمأ مورد السحاب ، ويقطع تشوف ناظر مبدد النظرات ، مقسم الخطرات . خوفا على حوزته المحروسة ، ونفسه النفيسة . من صروف الايام جعل الله لها عنه شغلا ، ولا زالت الكفاية الالهية بينه وبينها سورا وقفلا ، ولا عدم الدهر محاسنه التي لولا حلاها لكان غفلا .

فصل : نوبة جبيل لا شك ان الفسخ يتبعها ، وسوق الحرب تقوم بها ، وجاء

---

(١) هو محمود بن علي بن ابي طالب ابو طالب التميمي الاصفهاني الشافعي . كان خطيبا واعظا ، درس باصفهان . توفي سنة ٥٨٥ (شذرات الذهب للحنبلي ٤/ ٢٨٤)

(٢) هو ابو منصور مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني . كان عتيق زين الدين ابي سعيد علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل . وكانت مخائل النجابة عليه لائحة فقدمه معتقه وجعله اتابك اولاده وفوض اليه امور اربل سنة ٥٥٩ وانتقل الى الموصل سنة ٥٧١ . وكان مكان نائب سيف الدين غازى بن مودود وله اثار جميلة ومختلفة هناك . توفي سنة ٥٩٥ هـ . بقلعة الموصل (وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، ج ٣/ ٢٤٦ مطبعة السعادة بمصر)

(٣) مكررة في الاصل

وقت من اوقات البكاء على السلطان رحمه الله

وتناسوا في امر كل عظيمة لو كلت حاضرهم اذا لم ينبسوا

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر وفي السنة الغبراء يذكر القطر[١] (٣٤)

واحوال المسلمين في هذه السنة لا تحتمل المحاربة، ولا تحتمل الا المقاربة. واعزز عليّ بان سقطت من العقد جبيل وما كانت الا واسطة، وان غلت يد من القوة وكانت بها باسطة. والله يعظم فيها اجرنا، ولا يمتحن بدوام ايامها صبرنا. وارجو ان يرد الله منها على الاسلام طريدته[٢] وان لا يخلي من اسمها جريدته. وكتاب المولى الأجل السيد لا عدمته الا بلقائه، يجلي الكرب ويجلو القلب. وأوثر ان يوفر حظي من وظيفته، وان يعتد الكتاب قربة من القربات المكتوبة في صحيفته. وكتب في مستهل الاهلال حيّت وجهه بكره واصائله، وطوالعه واوافله. ان شاء الله (٣٥)

١١

وكتب اليه

وقفت على كتابي المجلس دام مجلسه مخدوما، ولا برح مقاما للعلم معلوما، وموسما بالفضل موسوما. وفدت الاقلام قلمه، وتلت الاقدام قدمه، وشكرت المروءة شيمه، ووردت الآمال اليهم شبمه. ووصلت الضادية العزيزية وبها فخر كل من نطق بالضاد[٣]، وكل فهم بعد الرى منا صاد، وسيدنا يهيم في وادى المجرة والشعراء تهيم في كل واد[٤] . ووقفت على ما انعم به من ذلك الكتاب الذى اطال فيه الطول، واستوفى فيه القول. واستولى

---

(١) من بيت لابي فراس :

" سيذكرني قومي اذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر"

وهو في الاصل لعنترة : الديوان ص ٨٨ : تحقيق عبد المنعم شلبي .

(الديوان ص ٢١٣ ج ٢ ، سامي الدهان : بيروت ١٩٤٤) .

(٢) بيت في قصيدة "على قدر اهل العزم" للمتنبي :

طريدة دهر ساقها فرددتها على الدين بالخطي والدهر راغم

ص ٣٨٦ (الديوان : دار صادر دار بيروت)

(٣) من بيت للمتنبي :

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

(ص ٢١ دار صادر دار بيروت الديوان)

(٤) " والشعراء يتبعهم الغاوون" (سورة ٢٦/٢٢٤) .

" الم تر انهم في كل واد يهيمون" (سورة ٢٦/٢٢٥) .

فيه على شأو السبـــق،واستوفى قلمه وخاطره فيه شوط البرق . (٣٦) واوجب على البلغاء ان تصلي خواطرهم الى قبلة الشرق ، واهتزت غصون سطوره في الورق مما حركها من اسجاع الورق ، وكتب به على الكتاب الرق بما كتبه في ذلك الرق ، فاما انا فما عدوت ان تلوت قوله : يزيد في الخلق [١] . وكتب سيدنا اياديه وحوشي ان يقطع اليد ، واحاديث نعمة الله لا عدمتها على **المسند** . ورأيه الاعلى . ان شاء الله تعالى

١٢

وكتـــب اليه

مضت ايام لا احصر طرفيها ، ووددت لو ردت على عقبيها . خالية من كتـــــب المجلس لا زال عزيزا على الاولياء ، مذلا للاعداء ، مرفوع القدر الى السماء ، موروود (٣٧) الكتب بالغلل التي لا تقبل عنها نيابة الماء . ولما استبطأت الابتداءات على المادة ، والاجوبة عن الكتب التي هي مني موفورة المادة . حركت حظي الجامد ، واستدعيت لمرضي كتابه العائد ، بهذه اللمعة ولم يتجدد ما انهيه .

فصـــل : وقد هلك المتجمل فضلا عن الفقير ، وطرق الفرق من الشدة بما لم يخطر في التقدير . والميسور بحمد الله قريب ، والعام المستقبل خصيب . ومن المهم الذى ينعم به النيابة في الخدمة الضيائية اعزّها الله ان كانت العودة على ما بلغني صحيحـــة ، والرجعة الى دمشق بامور شارحة وارجو ان تكون لنا مشروحة . ولا بد ان تكون [٢] (٣٨) هذه السفرة قد اسفرت عن غرائب من الكتب ، وان تلك المهمة بها مخدومة ، ومكارمها تستخرجها من ايدى اهلها ولا اقول الا الكريمة . فلا ينسى غائبا لم ينسه ، ومستوحشـــا وجد وهو في مصر من دمشق انسـه ، والخير يكون ان شاء الله تعالى .

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : " باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير " (سورة فاطـــر ٣٥/١)

(٢) مكررة في الاصل

١٣

وكتب اليه

ورد كتاب المجلس زاد الله في انفاسه ،واغناه بحراسة لطفه عن احتراسه . واغنى الملك عن اعمال سهامه بقرطاسه ،وجعل النجح لخطراته سابقا لفرصات التماسه ،ولا اطفأ نور خاطره الذى حسب اهل الخواطر حياء ان يكلموا لاقتباسه . ووصلت القصيدتان العزيزيتان وما (٣٩) احد الا استعظم ما نظم ،واستكثر ما نثر واقرّ له بطلك اليد ، وتجمل بالاعتراف بالقصور عن هذا الامد ،فرارا من قول ابي الطيب

من تعاطى تشبها بك اعيا • ومن دل في طريقك ضلا[1]

وسيدنا كالرحيق كلما قدم جاد ،وكالمسند كلما كبر ساد ،وكالذهب كلما سبكته السنون زاد .

كبرد اليماني قد تقادم عهده • ورقعته ما شاء في العين واليد

وسيدنا وان اكثر مما نظمه ،وقذف بحره الى قلمه بدره فالتهمه ،فانا معه كما قيل :

واني واياها لكالخمر والفتى • متى يستطع منها الزيادة يزدد

وخمرة هذه الكتب خير من خمرة العنب،فان سكر هذه (٤٠) يزيد في نور النهى ، وسكر تلك يزيد في ظلمة الهوى . وقد كنت اشرت الى ما يخدم به المجلس العزيزى خلد الله ملكه بالبيت والبيتين ،والمقطوع والمقطوعين . فابى خاطره الا ان يبارى الهبات العزيزية عددا بعدد ،وان يشرى الا يدا بيد . وقد عولت على القاضي الاجل نجم الدين[2] في ان يوقي نجومها الى ذلك الافق ،وينوط القلادة بالعنق ،ووثقت بما عنده من كرمي العهد والخلق . فأما ما انعم به وخصني به فما اعده الا زكوة لنصاب بلاغته بل انصبائه ،ولقد اثقل ضهرى بمثل قافية القصيدة فلا خلا كل ظهر (٤١) من

---

(١) بيت من قصيدة آلة العيش صحة وشباب :

من تعاطى تشبها بك اعيا • ومن دل في طريقك ضلا

(ديوان المتنبي ،دار بيروت دار صادر ص ٤٠)

(٢) هو الحسن بن علي الشهرزورى ،ولد سنة ٤٧٩ ،وتفقه على الشيخ بن المنصور الرزاز، ودرس بالموصل ومات ٥٦٤ . (طبقات السبكي ج ٤/ ١(٢))

تحمل منته واعبائه . وهذا بحر زاخر ،وفكر كليل المحب بلا آخر . ذكر المجلس السامي الاخبار المتجددة والاحوال المستطلعة ،فعرفه الله خير ما اطلعه عليه ،ولا عدمت معروفي لسانه ويديه . وذكر العزم على الخروج فصحبته السلامة ،وتلقته الكرامة . كل من ذكره سيدنا بسلام او بشكر بلغتهما اليه وقابلتهما باكثر منهما ،وان كان خاطر المجلس لا يكاثر ولا يخاطر . والله تعالى لا يخلي كافة اوليائه من آلائه ،ويديم على الليالي والايام ما لبساه من بهجة لالائه . وكتبه الكريمة

كانفاس الحياة ليست تمل (ومن يمل من الانفاس ترديدا ؟

ولا ارى لذلك الخاطر الكريم ولتلك البقية الحسنة ان يبتذلها لمن لا يستطيع الزيادة في مودته ،ولا ان يتكلف احراز ما احرزه باول خطرة من معرفته . على ان كتبه حسنة الزمان فان لم احطها سلاحا عليه فبماذا قتالي لسيئته ،والمجلس السامي في امان الله ودعته وسعته . ان شاء الله تعالى .

١٤

وكتب اليه

ورد كتاب المجلس امتع الله الفضل بالبقية الحسنة من فضله ،وادام سيادته على اهله ،واعاذه بخصب رحله من محل محله ،ولا عدمنا من لفظه ما نشهد انه الشهد حقا ،لا نحلة نحله ولا نخيلة نخله ،وكانت الايام قد ضربت دونه الحجاب ،وغالطتني فيه الحساب ،وتقطعت الاسباب (٤٣) بتأخره عن القلوب وسرورها فلا انساب . وعرفت ما تجدد والله المشكور على المسموع والمسطور ،والمستجار مما تجرى به حوادث المقدور .

وكتب اليه

وردت مكاتبتا المجلس اعلى الله ظله ، وقرن بالتوفيق عقده وحله ، واجرى على يديه ولسانه وقلمه فضل الملك وعدله ، وجمع به شملنا وجمع بنا شمله ، واوضح له الخير وهداه وهدى به سبله ، واهلك كل عدو له واذله ، وجعل الحياة قذى واذى له. ووقفت فيهما على البلاغة المسرورة الموضونة ، والجواهر الثمينة المكنونة ، والثمرات التي (٤٤) اجتنيها من شجرة البلاغة الطيبة ومن الناس من يجني فيجنيها من الشجرة الملعونة. وعرفت الاحوال بشرحها ، والتدبيرات المتنجحة بنجحها ، والتقريرات الليلية الموصولة بصبحها ، والآراء التي حكمت على غضب الايام المحاربة بصلحها. والمشورات[١] المشورات[٢] من جنى قلمه العسلي ، الذى لا يقوم مقامه العاسل الاسلي. ومن ثمرات فكره الخفي ، الذى اتيح لهذه الدولة اتاحة اللطف الخفي الجلي. وما احوج محاسنه المتبرجة[٣] الى واصف ، وغرائبه المدرجة الى كاشف. ولكن الخواطر من بعده على خطر ، (٤٥) وما ترك للشوق غير قربه من وطر. فاما الكتاب النحالي المقصور على التعزية بقطب الدين[٤] وانه اعجبها[٥] ما فيه وعجبتني منه ، فهو من كلام السديد[٦] رحمه الله وليس

---

(١) النصائح

(٢) من شار العسل يشوره ، استخرجه من خليته وموضعه .

(٣) على هامش المخطوطة : الاصل المتأرجة .

(٤) قطب الدين مودود بن زنكي بن آق سنقر. اخ نور الدين محمود صاحب الشام ، واخ سيف الدين غازى الذى تولى قطب الدين السلطنة في الموصل من بعده ، وكان عادلا في حكمه. توفي ... ولته عظم شأن جمال الدين محمد الوزير الاصبهاني المعروف بالجواد . توفي ٥٦٥ (ابن خلكان ج ٤/٣٨٧ مطبعة السعادة) وهكذا في مفرج الكروب ج (١/١٨٩) .

(٥) الضمير هنا يعود للحضرة ، وهي مستترة .

(٦) علم الرؤساء ابو القاسم عبد الرحمن بن هبة الله بن حسن بن رفاعة من اصل مصر المعروف بكاتب الامير ناصر الدولة. ويذكر العماد ايضا انه عندما دخل على القاضي الفاضل وجد بيده كتابا لابي القاسم. والقاضي الفاضل يقضي بفضله ويثني عليه. وقال انه افضل من في مصر نظما ونثرا . (الخريدة : شعراء مصر ج/١/٥٦)

هـو من سديده . وقد اظلم بتعقيده ومن كان عبد القافية استرقته وتحيّفت رونـق قوله واسترقته . وكتب سيدنا امثلة البلاغة وقوانينها ، ونزه الفصاحـة وبساتينها . وانما هو في استحسان ما يعمله غيره وغمط ما يصـدر عنـه كالنحلة لا تستعذب رضابها ، والروضة لا تستحسن اهابها . والنجم شاكر لانعامه، وملتقط الرزق (٤٦) من مساقـط اقلامه . والخواطر على مصر الآن امل يؤمّل لا مال يتمول . وكتب المستخدمين بها مشتملة على ضجيج صحيح . وقد حمّل البلاد ما لا تطيقه من الحوالات ، واصطلى الصفي ما هو حريقه من نار المداوات . والاجوبة البغدادية عما سار فيه القاضي الضياء[1] كنت قرأتها قبل كتابتها ، وتسلفت نفسي بها موقع كآبتها . فما ازددت بها علما ، ولا احتجت لما جاءت الكتب ان اسأل عما ويجب ان يجسم ذلك المورد ، ويخفف الثقيل المتردد ، ولا يسأل في تقليد فان الله المقلد . وارجو ان يكون سيدنا قد اخّـر الكتاب الذى كنت كتبته الى القاضي . . . [2] فهو خطرة من خطرات الاطماع التـي تصرع العقول تحت بوارقها ، وتوضع الرؤوس بالحقيقة (٤٧) تحت مرافقها . وولد الخطير بن مماتي [3] ينعم بالخطاب فيه ورده الى اهله ، فقد اتفق من موت جماعة قدموا لطلـب الارزاق فوجدوا الاجال تطلبهم ، ما اخاف اهله واخاه ، واقلق من وراءه وودّ لو رآه ، وما وفد وافد فخاب، ولا ورد وارد الى الباب فلاب . وان امرأ رفعته بلد وخفضتـه اخرى ، وجاء الى يمين الكرم التي يسرت للخلق اليسرى . وفـر من الزمان الى فضلها ، واستعدى على الايام بعدلها . لمستحق بان تزوده كتب الامان له من الفقر وتلك الكتب العمادية فدواتها تلي الارزاق ، وقلمها وكيل الله على الانفاق ،

---

(١) لم اعثر الا على " الضياء " عبد الملك بن زيد التغلبي الدولعي ، خطيب دمشق . والدولعية : قرية من قرى الموصل . قدم دمشق واستوطنها وصار خطيبهـا . توفي في ربيع الاول سنة ٥٩٨ (النجوم الزاهرة ٦ / ١٨١) .

(٢) لم تمكن قراءتها .

(٣) استولى على ديوان الملك الناصرى في القاهرة ، ديوان الجيش . كان هو وجماعته نصارى فاسلموا في ابتداء الملك الصلاحي ، وحصلوا على الجاه والحرمة الوافرة (الخريدة ج ١ / ١٣١) ومثله في معجم الادباء لياقوت ايضا وفي معرض الحديث عن ابنه اسعد بن مماتي . (ج ٦ / ١٠٨ مطبوعات دار المأمون)

(٤٨) وغير هذا قد كثر طلبي للسفر الى الحجاز والاجابة عنه بما هو كالدفع، وقد حفزتني حوافز في هذه السنة لا سيما ان توجه الركاب العادلي، فيساعدني على ان يكون التوجه بأمر تطيب به النفس، ويخلو به للعبادة الذرع، ويشركني من ساعد على المراد في الاجر وحتى استمر المنع وحضر وقت العزم دعت الضرورة الى السفر والتصريح بقول ما يعزني تركه ولا استغنى عنه من الانعام، فان عمرى لم يبق في انائه الا صبابة

يلوذ باقطار الزجاجة بعدما   اريقت لما اهديت في الكثر امثال [1]

وعرفت ان الكتب من ميافارقين[2] وغيرها قد كثرت، وما يخلو ان يحمل منها الى الحضرة الغريب والمستطرف

(٤٩) اذا ما حضرتم فاذكرونا فاننا   ذكرناكم لما حضرنا وغبتم

والجماعة الذين منهم من لا اعرف نعته، وسيدنا قد اوصل سلامهم، فعليه ان يرد عن التحية احسن منها او مثلها، لا اعدم الله الجماعة برد الحياة به وظلها. وكتب سيدنا سيدة الكتب، وعندى لها شكر كلما اخضرت الربا، وابيضت الكثب. وهو ينعم بها في وقت الامكان، ويقنعها نفايات من الخوان، فان الشغل لا تخفى كثرته الآن. ورأيه الموفق.

١٦

وكتب اليه

ورد = ادام الله نعمة المجلس واسبغها وسوغها، واغدقها وافرغها واوصلها الى ساحاته الفسيحة وبلّغها، ونكس (٥٠) بها رؤوس الاعداء وهنأ بها مواقع عيشه وارفغها [3]، وقسم لها من الاعمار غايات لا تبلغ الاعداد مبلغها = كتابه الكريم المؤرخ بثلاث بقين من شهر ربيع الآخر في ثالث عشر جمادى الاولى من الاسمعيليات، شارحا للاحوال الشارحة، مسكنا لنزوات القلوب الطامحة، محققا لمستقرات الامور بعد ان كانت

---

(١) سقط الزند : ابو العلاء المعرى : دار صادر، دار بيروت ص ٢٢٨.
(٢) ميافارقين : بتشديد الياء، وهي اشهر مدينة بديار بكر (معجم البلدان لياقوت ج ٥)
(٣) العيش الارفغ : الواسع الهني.

الخواطر تحال على الامور الطائحـة . ووصل ما اقترن بها من الكتب المعروضة بالمجلس العالي ، واجراني على عادة الاهتمام التي اغنت عن شهادات الاقوال بها شهادات الافعال . وابان عن نية برعت في الاحسان ، وبذلت منه فوق ما في الامكان ، واستوجبت حقين ، حقا على القلب (٥١) وحقا على اللسان ، واستنبت في الكتب في هذه الدفعة لما انا عليه من رمد قد تشبث بالاجفان ، وكلال قد اشتركت فيه العينان . واجبت عـن امر يخصني بفعل احتجت فيه الى الاعتذار ، وعولت في تمشيته على مناب سيدنا الذى لا غنى عنه للغياب والحضار ، والله يحدث للسلطان نصرا يقرب به الدار ، وتلقى معـه قلم المكاتبة وعصي الاسفار . واقتصرت على هذه الجملة وعندى الى المداولة اشواق لا تجنح الى الاقتصار ، والرغبة الى الله تعالى ان يسهم في رؤيته يد القلوب والابصار .

فصل : وبالله اقسم ان تعطل لي لسان ولا قلم ولا يتصرف لي الى (٥٢) جهة من الجهات عين ولا قدم ، ولا يغلق لي باب ، ولا ينسدل دوني حجاب . والحال فـي ذلك لا بد مع العدوان يستوضحها سيدنا بعلمه ، ويأخذ من حمل همي فيها بسهمه . ومن العناء انها خدمة ، المخدوم بها غائب ، والمخبر بها كانه رائب . واودعت هذا العلم عنده ليقول في المطالعة السلطانية انني لا اخلو من كتب فيها ما يسوء الاعداء ، ويسر الاولياء . وقد بقي ما لم اشر اليه ولا يجوز ذكره من قصور المواد عن المراد ، وبيع البرك[1] واكل ثمنه في هذا البيكار[2] الذى لم يقع به اعتداد . ما اطيب ما اهداه سيدنا من (٥٣) سلام الفقيه جلال الدين قدوة[3] المشايخ الجيـلي[4] ، فان الكتاب به عبق

---

(١) البرك : الابل الباركة
(٢) البيكار : تجمع على بياكير . وهي لفظة فارسية تعني الحرب بوجه عام (دوزى)
(٣) هو الوزير جلال الدين ابو الرضا محمد بن احمد بن صدقة وزر للراشد بالله وكان فيه خير ودين ، توفي في شعبان سنة ٥٥٦ عن ٨٠ سنة (شذرات الذهب ٤/١٧٧ مكتبة القدسى) وفي الخريدة . شعراء الشام هامش ١٢٨ من ج ١ — انه وزر للامير عماد الدين اتابـك ايضـا سنة ٥٣٢ .
(٤) نسبة الى جيلان ، وجيلان قوم من ابناء فارس نزلوا بطرف من البحرين وغرسوا وزرعوا وسمي المكان باسمهم . (معجم البلدان : ياقوت .)

لا جرم ان الانس به علق . وما ابلغ تلك البلاغة ، وما احسن تلك الصياغة . والله يذكره بخير ، وهو مهنأ بانتقاله من المسجد الى الدير . ومولانا ينوب عني في خدمته ، فقد عجلت عن مكاتبته . والمولى الاجل جمال الدين ابو الفتح [1] ادام الله نعمته ، والحاجب عفيف الدين صالح لا عدمت الهمة العمادية خدمته . ينعم سيدنا بحمل سلامه اليهما ، واعادة تحيته عليهما وان لا يخلي كتابه من ذكر عافيتهما المستدامة ، وسلامتهما ادام الله لهما (٥٤) ولسيدنا السلامة . بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى .

١٧

وكتب اليه

وصل كتاب المجلس وصله الله بتوفيقه ، وسدد سهام التسديد بتفويقه ، واصفى موارد الملك بترويقه ، ولا اخلى غور الاولياء من تحليته وتطويقه . وفدت الكتب كلها كتبه اذا وفدت فبالغت بلاغتها في تهييج كل قلب وتشويقه . فوقفت منه على السحر الا انه حل[2] وبل[3] ، وعلى الدر الا انه جل والدر دق[4] وجل[5] ، ولقد ذعرت به الظلام فبت في شمس وظل . وعرفت العودة (٥٥) عن تلك الجهة وان بارقها كان وعده مخلفا ، وكان وميضه مخلبا ، وان كان جوه منتقبا ، ورعده مجليا . وما ضمن السعد فتحه فما اغلاقه الا الى امد . وما كان العدل[6] وسيطا الى اهله فما يحتاج فيه الى مزاولة يد والارض لله .

وحبذا ما عصمنا من بعد مولانا الملك الناصر اعز الله نصره فان بعده الهم الذى لا تهم به الاوصاف ، ثم حبذا ما صان اطراف خاطره من التقسيم الى ان لا تضبط الاطراف .

---

(١) جمال الدين ابو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبد كويه . ورد هذا الاسم في (مفرج الكروب ٣٠٦/٢) وقد كان قد ارسله السلطان رسولا الى مظفر الدين قرا ارسلان بعد ان كتب اليه هذا يتظلم اليه من عمه قرا ارسلان .

(٢) (٣) حق ، مسموح به

(٤) (٥) دقيق وجليل (عظيم)

(٦) سبقت ترجمته ؛ ص ٤

ابالاسكندر الملك اقتديتم فما تضعون في ارض وسادا
وان من الصراط الى مجر ال فرات الى قويق مستزادا

والله يصون الحضرة العالية من عدواء السفر ووعثائه ، ويحطها على سهل الطريق وميثائه ، ويمتع باقوالها التي ينفع الناس سيلها واقوالهم تذهب ذهاب فثائه . وآراؤه الموفقة في توفير السهم من شرحه ، وايواء خاطر الشوق الى ظل سرحه . ان شاء الله تعالى .

١٨

وكتب اليه

ورد ادام الله ورود المسار والمبار على المجلس السامي ، واعز به الاسلام ، وجمل به الايام ، واغنى بعلاماته عن الاعلام ، ورفه سيوف الممالك التي يدبرها بما في يده من الاقلام وحمل رحله ، وآمن سبله ، واعلى محله ووصل (٥٧) حبله ، وسرّ بلقائه اولياءه واهله = كتاباه الكريمان من ميافارقين وعرف ما تضمنا ، واستبان ما بينا . واستخار الله فيما شرحا ، وسأله ايضاح حسن العاقبة فيما اوضحا . ولم يسغ له ان يتفسح في الجواب ، ولا ان يبوح بذات سره الى الكتاب . ولا ان يأمن الطرقات ، ولا ان يسرح المطلقات . ولا ان يروح الصدر بنفثة ، ولا ان يكسر التعب بلهثة ، ولا ان يرسل حرفا من حروف المعجم لسانه في كل واحدة منهما من رثة . والتفسير على ابن سيرين ، والسعادة السلطانية شجرة توتي اكلها كل حين[١] ، ولست اشك في ان ما اختار الله هو المختار ، وان (٥٨) المصالح محجوبة تحت استار الاقدار ، وللمصابرين الصابرين حسن عقبى الدار[٢] . وانا اسأل الحضرة ان لا تعرض في هذا الوقت رقعة فتعرض صاحبها للرد ، والشافع فيه

---

(١) "توتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال لعلهم يتذكرون" . (ابراهيم ١٤/٢٥)

(٢) تضمين من القرآن : وقد جاء ذلك في ايات كثيرة : " والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار" (سورة الرعد ١٣/٢٢) (وكذلك في سورة الرعد ١٣/٢٤ و ١٣/٤٢)

الى البرد . ولا تراجع في فصل من المكاتبة ،ولا تتوكل في اوقات المجاوبة . فللحوائج اوقات ،وللتوفيق اتفاقات . و المهم غير الرقاع [١] والحديث لنا الان تنبو عنه الطباع .
وقد امتثل الامر فيما كتب به في معنى الحوالة وما من المرتضين الا من خدم ورجح وما بجح والسابق بالقول قالا انه لما سبق ما صدق ،وكان التماس المشار اليه نقل الحوالة وهي حبسية ،على معاملة ابن شكر [٢] وهي ديوانية . اغلوطة يبادر (٥٩) السلطان والديوان الى ردها ،وانشوطة ما استقلت يد التمويه بعقدها . وللحديث تتمة لا نفع في سماعها ،ولا وجه لايراد صداعها . وسيتضح الحال ،وينجز ان شاء الله تعـالى المال .المولى الاخ جمال الدين [٣] بالسلام مخدوم ،والكتاب بمسك ذكره مختـوم . والحاجب صالح حجبه الله وصحابته عن كل مكروه ،ورد هما الينا باحسن الوجوه على احسن الوجوه . مهداة اليه التحية ،وقد انقطعت الرواية عن اخباره الخاصية والسوقية . وقد دعـوت في جمع الشمل بالجماعة مجيبا سميعا ،وعسى الله يأتيني بهم جميعا بمنه وكرمه . وجـد النجم العثماني محل شكر سيدنا (٦٠) فسيحا ،فاجرى قلمه الى ان انثنى طليحـا . وما استزيد له الغاية العمادية فاستقصرها ،ولا استصغر همته اذا جاءت بحسنة ان استكثرها . وقد افتضَّ البيكار بكر ماله ،وصبر على ما لولا رجاء الحضرة لما كان من رجاله . وما وسع الوقت كتابا اليه ،وهذا القدر يورد عليه . والحمد لله وحده .

١٩

وكتب اليه

ورد كتاب المجلس السامي لا زال مخصوصا بالسلامة والسلام [٤] ،مفيدا للنعمة

---

(١) جمع رقعة وهي رقع الثوب الحم خرقه واصلحه بالرقاع .
(٢) هو صفي الدين ابو محمد بن علي بن عبد الخالق بن شكر ولد بالديار المصرية بدميرة بين مصر واسكندرية سنة ٥٤٠ ،ودفن بتربته عند مدرسته بمصر . وقد وزر للملك العادل . توفي ٦٢٢ ،" وكان مشكور السيرة ،ومنهم من يقول كان ظالما" . (ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣/ ١٠٩)
(٣) لعله الجواد جمال الدين ابو جعفر محمد بن علي الاصبهاني وزير صاحب الموصل اتابك زنكي . كما انه وزر ايضا لولد زنكي سيف الدين فازى ثم لاخيه قطب الدين . وله محاسن ومآثر لم يسمع بمثلها . توفي سنة ٥٥٨ هـ . (شذرات الذهب ٤/ ١٨٥) مطبعة القدس
(٤) في الاصل السلم وقد غيرناها لتلائم فواصل السجع

والنعام، مدبرا للاقاليم بالاقلام، مطيبا بسهره في المصالح والنصائح منام الانام، مستلذا في المكرمات ما تقتسم يده، وخاطره من الغرامة والغرام. (٦١) فوقف منه خاطرى الحيران على ما هداه لقصده، وقلبي الظمآن على ما جمع بينه وبين ورده. وناظرى المهجور على الحبيب المنعم بوصله، وسرى الاسير على يد المحسن بفك كبلـه. ونشرت حلل الانس، ورتعت فلولا الغلو لقلت في رياض القدس، واشرفت على ايام الاعياد وليالي العرس، ولقيت الايام بعده آمنا مستـغـشـمرا (١) فكانني في الحرم وكأنني من الحمس (٢). فـلا عدمت ذلك الفضل الواسع، والخلق البارع، والمناب النافع، واللفظ الناقع، والمعنى الواقع، والسرور الطامع، والحديث الذى يبث في الارواح شعاع الروح الشائع، والقلم (٦٢) الذى يدبج الطروس بوشي الوشائع (٣)، والقوافي التي هي في فضون فصون السطور بمنزلة الحمائم السواجع. وما بالسماء خفاء فأشير، ولا في الفضل ضائقة فاستعير، ولا على النهار ستر فاستنير. وقد علم الله انني ارتاح الى هذه الحلى واحل لها عقد الحبا [٤]، واهتز لقطرها كما يهتز لحب القطر الربا، وانني اقرأها معاودا ثم لا اقضي منها اربا. وقد تمادت الفرقة والشوق متماد، وهام خاطرى في كل واد، الا وادى السلو فليس له بواد ولا هو له بوادّ : (٦٣)

اما في صروف الدهر ان ترجع النوى بهم ويدال القرب فيهم من البعد
بلى في صروف الدهر كل الذى ارى ولكنما افغلن حظي على عمد

فاما الاخبار الطيبة، بتلك السياقة المستعذبة. فقد اوردها بلسان الاحسان، واحسن فيها العبارة عن الزمان فهو ترجمان الزمان، ونعم المعيد لسانه لما يمل الملوان [٥]

---

(١) مستعتمّرا

(٢) الاشداء. والحمس تعني قريش لانهم كانوا يتشددون في دينهم وشجاعتهم فلا يطاقون. (لسان العرب، مادة حمس)

(٣) الوشائع : الرقوم والطرائق في الثوب جمع وشيعة.

(٤) حل حبوته اى قام، وعقد حبوته اى قعد، وهو من باب الكناية. حبا الصبي زحف ومشى على الاربع.

(٥) الملوان : الليل والنهار

ولقد خشيت ان يكون ذلك البيان بما زين للناس من الشهوات ،او مما حظر عليهم من جوالب النشوات. بل هو من نعيم الجنة الذى كلما نفد جدد ، (٦٤) بل هو من ثمراتها الذى هو كلما اريد ردد . والجماعة السادة الذين بلغت سلامهم عليهم سلام يضيء له ما بيني وبينهم من المسافة ،وودت لو كنت بتحيتهم المشافة. لا عدموا ظلا من سيدنا ظليلا ،وخلفا من الامال في فنائه جميلا . ان شاء الله تعالى .

٢٠

وكتب اليه

ورد = ادام الله انس المجلس بنعمه ،ولا اخلى الايام والانام من محاسن شيمه ، والدولة والملة من محاسن قلمه ،والاولياء والاعداء من مكارم همه . فالاولياء الاولون يحسن اليهم كما تقتضيه الهمة ،والاعداء الاخرون يحسن اليهم[1] (٦٥) كما تقتضيه الرحمة . ولا برح معانا مؤيدا ،موفقا مسددا ،معوّدًا للخير وله معوّدًا . مفزوعا اليه في كل مفزوع منه ، مستغنى به عن كل مستغنى عنه . ولا اعدمني تفضله الذى تفضله صحائف الود ، وتفاض عليه طرائف الحمد ،وعهده الذى جمع الى بقاء الاس نضارة الورد ،والى دواء الروض رى الورد = كتابه الكريم الكليم ،وخطابه الذى يمر على الروح بروح النسيم . فشربت من جنته كاسا كان مزاجها من تسنيم[2] ،وصليت الى قبلة وخصصت المنعم به بكل صلاة وبكل تسليم

وامرجت طرفي في مروج فصوله والقطت فكرى من تضاعيفه درا وعقدت على وده العقد والخنصر ،وجمعت في حمده بين جهدى (٦٦) الظاهر والمضمر ،وشكرت تلك الخواطر الكريمة المكارم فلولا تصغيرها للمكرمات لما كانت تتصور . وعلمت مقتضيات المودة المباركة الى الجانب الموصلي جعل الله اسباب الخيرة معذوقة[3] بها ،

---

(١) مكررة في الاصل

(٢) تضمين من القرآن الكريم : "ومزاجه من تسنيم" (سورة المطففين ٨٣/٢٧)



(٣) عذق فلانا بشر : رماه ووسمه به ،عذقه الى كذا : نسبه .

وحميد العاقبة مضمونا عليها وسعادة المنقلب متضمنا لها . والغائب غائب هو ورأيــــه ، فاذا هم بمشـــورة نـــأى به عن الصواب نأيــه . وكل ماســيره سيدنا من الكتــــــب ، فالرقاع صغيرها وكبيرها ، وموصولها ومبتورها ، شاهد بأنه لا يلحظ الدنيا الا بعـــين خله ، ولا يأذن للقول على سمعه الا ليؤديه منه الى محلـه . وهذا تفضل لا اسـتنيب في شكره الا لسانه ، ولا اشتنهض (٦٧) في ميدانه الا عنانه . وقد تحققت انـــني مـا غبت عما حضره ، ولا حجبت عما نظره ، ولا اخليت ما عمره . وعذبت لي به حالاتي ، وعظمت آلاء الله لدي لما قصرت بي آلائي ، وان من هوس الكتب فيما لو حضرت البكار وكنــــت كاتبه لما زاد عليه فان قلمي والله لا يجف ، وشغلي لا يخف ، والعتب ممن يكتـب واعجـــز عن جوابه زايــد ، والامر الى مداراة اكثر من يكاتب قائد . وما سبب كوني هدف المكاتبات الا ما يسير الى من كتب السلطان اعز الله نصره والله المستعان . ووددت لو قيل لمـــن كتب هذا الكتاب من هو الذى اوصل الكتاب لا يعرف ، واى شيء اوصل من لا يعرف الـــى ان اوصل (٦٨) كتابا الى من وراء ستر شريف عظيم محجب مضبب ، عليه الف مرتب ، بـــل الف طلب مطلب . والسادة المسمون من كل من الجمال والحاج الحاجب المصلح صالح ، وما عرفت لقب المولى الجديد محمود فتعرفنيه وكل من الحاشية حتى يصل الحديث الـــى خربذيتها [١] بل الى دوابها

واحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيرى [٢]

اسأل في ابلاغهم سلاما كسلام اصحاب اليمين [٣] ، وسؤالا ترتقي اعداد الالفاظ به الــــى الالوف ولا ارضي بالمئين . ورأيها الموفق .

٢١

وكتب اليــه

اصدرت هذه المكاتبة الى المجلس السامي حرس الله منقبتــه ، (٦٩) وضاعف

---

(١) لعلها جربذيتها : وهي من عدو الفرس، العدو الثقيل ، بتنكيس الرأس وشـــــــدة الاختلاط . (لسان العرب مادة جربذ) .

(٢) للمنخل اليشكري : انظر الاغاني : ٢٩ / ١١

(٣) تضمين من القرآن الكريم : " فسلام لك من اصحاب اليمين" (سورة الواقعة ٥٦ / ٩١)

موهبته ،واسمى مرتبته ،ووقى الايام معتبته ،وجبـر ببقائه فقر الدهر ومتربته . والخاطر يتقاعس في عنان القلم معنى ولا يكاد يعين ،واللسان يتعثر في اذيال القول مهينا ولا يكاد يبين ،والله يجليها لوقتها ،ويفرج عن انفسنا ولا ينظر اليها بما تستوجبه من مقتها . ويكشف هذه الشدة فانها قد اذهلت كل مرضعة عما ارضعت[١] ،ويفتح ابواب الفرج فانها بأنامل ايدى الدعاء قد قرعت.

فصل : وحلب بلد اذا ضبط ضبط ما وراءها من البلاد ،واذا وقع فيها تشويش سرى منها الى غيرها الفساد .

٢٢

وكتب اليه

اصدرت هذه الخدمة الى المجلس السامي حرس الله لديه مواهبه ، (٧٠) واحمد فواتح امره وعواقبه ،ووسع سبله الى رضاه ومذاهبه . ولا عدمت الدولة الناصرية مـن قلمـه ناصرا ،ومن رأيه ناظرا ،ومن فكره جيشا لجيش الاعداء كاسرا . وهو في امراض غير واحدة ، وعلى طريق من المداواة غير قاصدة . واشدها ما عرض من اعراض الكبر ،واشدها ما عرض من ضعف قوة النظر . وكان ورد كتاب سيدنا المؤرخ بمنتصف جمادى الاخرة من المنزلة بين بدليس[٢] وميافارقين[٣] الذى توالت فيه سجعات الضاد وسيدنا فخر كل من نطق بها[٤] كما قال ابو الطيب ،وتناسقت محاسنها تناسق قطرات السحاب الصيب. وهو يتناول المعاني والالفاظ من مكان قريب ،وان مد باعه فمن سحاب وان اغترف فمن قليب[٥] . والله لا يخلي

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : " يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد " (سورة الحج ٢٢ / ٢)

(٢) بدليس : بلدة في نواحي ارمينية قرب خلاط ،وهي ذات بساتين كثيرة. (معجم البلدان لياقوت)

(٣) ميافارقين : مر شرحها ص ٢٠

(٤) تضمين لشعر المتنبي :

وبهم فخر كل من نطق الضا ... د وعوذ الجاني وغوث الطريد

من قصيدة " غريب كصالح ثمود " (سبق تخريج ذلك)

(٥) قليب : بئـر

الانفس من انفاسه (٧١) المستطابة، والدولة من آرائه المستصابة . وما سرني انفاذ الكتاب الى بغداد وكانت كتابته من خطرات الرأى الافيل [١] ، ومن فلطات الخاطر الطفيل . وكنت كتبت الى سيدنا عدة مكاتبات اسأله في ستره ، واهمال امره . واعادته على ادراجه ، والعدول به عن منهاجه . ولا شك ان الكتب ما وصلت، وعلوم الغيب ما حصلت. ومع كل مسألة هوان ، ومع كل اسفاف حرمان ، ولا حول ولا قول . وقد بدا سيدنا بالضجر في كتبه ، وانما هي عوض قربه . فلا يبخل بعاده الجميل في بعاده ، ولا يضيق ميدان جوده بتوسيع ميدان جواده . ويسر به فؤادا ود ان الافئدة كلها فوادى فؤاده . ورايه اعلى ان شاء الله تعالى (٧٢)

٢٣

وكتب اليه

وصل كتاب المجلس السامي = وصلت يده يد الله العليا ، ونفذت له مشيئته الحسنى ، وتمت عليه كما تمت به النعمى . واسمعه الله كما يسمع منه اطيب البشرى ، في الحياة الدنيا وفي الاخرى . وسلام له من صاحب ، واهلا بكتابه ومتى نقول اهلا بالكاتب، وفداه من يعرفه فان ابوا فانا والطالب الغالب. وسبحان من خصه بمعجزة نبوية فسبح القلم بين اصابعه ، وتفجرت الحكم من ينابعه ، وجعله اماما ومن الذى لا يفتخر ان يوسم بتابعه = ببشرى يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة وذلك الكتاب لا ريب فيه ، والبشارة لا معقب لها ، والحديث لا غبار عليه ، والدعوى وبنيتها منها ، والنعمى وشكرها نشرها . فاما القلوب من الضلوع (٧٣)

فالقت عصاها واستقرت بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

واما الهجوع من الجفون فناداها

فيا جفني فاعتنقا انطباقا ويا نومي قدمت على السلامة

---

(١) الافيل : صغير الابل ، والرأى الافيل : الرأى الضعيف.

وسطرتها والرسول قائم ،والقلم على مورده حائم . قد اعجله عن الورد ،وقد اضله الارهاق عن القصد ،وسنعود فنقول ونقول . وفرج الله عني شدة عظيمة وكربة اليمة بمرض هجم ،ولا اطيل بذكره فقد قصّر الله مدته وفرج في ثاني يوم هجمة شدته . وما كنت الا قد شددت الحيازيم [١] ،ومت حتف الخياشيم [٢] . وكان المرض رعافا [٣] اجحف، بل اتلف. واذوى ،بل الوى . وودعت الدنيا ودخلت في الاخرة ، (٧٤) ووجدت الكرة الا ما استثني به الرجاء في الله خاسرة . وحاسبت نفسي فاذا انافي ضلال بعيد ، وقد قمت بعد ان ذبحني والله الاجل بسكينه فأسال بالحقيقة دم الوريد

فان عدت بعد اليوم اني لظالم

وقد بقيت هذه الصبابة في اناء العمر فلعلي لا اريقها .

في يوم هاجرة للمع سراب.

وسيدنا في امان الله وكلاءته الهمه الله ما ينفعه ،ويغنيه غنى الحقيقة الذى لا يثنيه الفقر ولا يقطعه . ان شاء الله تعالى .

٢٤

وكتب اليه

ورد ادام الله ورود النعماء على المجلس السامي ،واصلح باله وانجح آماله ، وتقبل اعماله ،وواصل اقباله ، ولا سلب الدنيا واهلها جميله (٧٥) وجماله ،واعذب خبره واطابه وقد عمره واطاله = كتاباه الكريمان . وذهب سيدنا الى العذر في كون الكتب المصرية سيرت ملصقة ولست هاهنا . ولولا انني ما اردت قطع خاطره في مكرمة قد استرسل في ميدانها ،ورأت نفسه النفيسة فائزا برهانها ،لاستعفيته من انفاذها الا

ادام

---

(١) شد الحيازيم : كناية عن الصبر

(٢) عروق في بطن الانف ،يقال مات حتف انفه اى بلا ضرب ولا قتل . قال ابو عبيد هو ان يموت موتا على فراشه من غير قتل ولا غرق ولا غيره . انظر لسان العرب. مادة : حتف.

(٣) رعف رعافا ،الرجل : خرج الدم من انفه .

ملصقة ومن بعضها الا مختومة وانما نزلت نفسي منزلة من اعانه على كتبه بختمها ،ولما عجز عن المساعدة فيها اتى بغاية مجهوده فيها وبمقدار خدمة الرواد لها .

فصل : ورايه الموفق في اهداء ما يهدى به ،الهدو ،والعناية بما يغين على دفع الهم فانه اعدى عدو.

٢٥

وكتب اليه

وصلت كتب المجلس السامي ادام الله توفيقه والتوفيق به ، (٧٦) وصرف عنه كل مكروه من مكروه الدهر ونوبه ،ولا اخلى المملكة من كريم مرتبته وشريف منصبه ،ولا زالت مسرات الخلق مضمونة على رسله وكتبه ، وعين الله كالئة له في منصرفه ومنقلبه . ووقفت على مجموعها ،ومنها ما شافه القلوب بحبورها ومنها ما عرضها لصدوعها . وبالجملة فان اكثر الروع يكون باطلا ،وأنَّ ظنَّ الشفيقِ وان كان عالما فربما كان جاهلا . وان لله الطافا في الشدائد ، وعادة جميلة ويشكر في اجمل العوائد .

فصل : ووصل كتاب نجم الدين العثماني وضاق والله عطني [1] من الجواب، وخفي عني كل صوب وكل صواب. وجاءت اسجاعه في مثل هذه (٧٧) فدلتني على ان الجأش رابط،والعزم ضابط. وان الاحوال لم يبد له صلاحها ،والليلة لو لم يستتر له صباحها ،لما انطلقت اقلامه ،ولا زخر بحره ولا فاض طوفانه. وانا استأنف اجابته واستأنف تأمل فصول كتاب سيدنا ،واستأنف شكر تفضله بما كتبه بقلمه وبما ذكره مسافر من تفضله ، وقد ارتفعت المنن العمادية عن شكرها ،وجلست لي عقائلها وسامحتني في مهرها . والحاج العفيف صالح والاجل جمال الدين والولد مجد الدين محمود ،متعهم الله

---

(١) العطن : مبرك الابل . وضاق عطنه اى ضاق ذرعه وعجز.

ببقاء المجلس العمادى، عليهم سلام الله وفائض بركاته ونامي تحياته. اطلعنا الله من جهتكم على ما يبرد اكبادنا ويسكن (٧٨) وسادنا.

٢٦

وكتب اليه

وصلت من المجلس السامي ادام الله نزول السعادة بساحته، وتعب الايام لراحته، ولا برحت المسار والمبار مستمطرين من صوب قلمه وراحته، واوامر الملك نواهيه دائرتين بين حظره واباحته = مكاتبتان احداهما المؤرخة بالثاني والعشرين من شوال، وحمل منها شوال اشرف ما حمل من الهلال [1]، واتممنا اليوم صياما لان مطلع الفجر كتابه وان ورد بعد الزوال. فالحمد لله على ما اشعر به من العافية المشتملة، والنعمة المكتملة، وعلى الفسحة التي ضيقت مجال الظنون المحتملة. فان تعاطيت وصف ما كان وما كنا، ناقضت بين القول والمعنى، فانه لا (٧٩) يصف الموصوف الا من هو حاضره، ولا يحيط به علما الا من هو حاصره. وكلا الامرين انا عنه غائب، حادث المرض لاشتداد الاسى واشتطاطه، وحديث الصحة لزيادة السرور وافراطه. والحمد لله الذى اقال العثرة واقلها، واحال العقدة وحلها، ورحم هذه الامة واظلها، من هجير الخطب الذى كان اظلها. وهذا الكتاب المبشر ان شاء الله تعالى مشفوع بامثاله، وهذا السرور الميسر متبوع باشكاله. وقد كشف الله الغمة وفرجها، واطفأ النار التي كانت ليس للوهم شغل الا ان يؤججها. واقلام المجلس اذا سقاها صوب فكره اطفأت كل نار، واذا انجدها حد عزمه اخذنا بها من الدهر (٨٠) كل ثار. فادام الله اسفار وجوه كتبه ورسله، وشكر لك حضرته من قوله وغبت عنه من فعله. وكلاهما الحسنى والاحسان، والروح والريحان، وكل ما يصدر عنه مشتمل على فاكهة الفكاهة التي تجنى من جنان الجنان. والى ان تنجلي عنا تلك الغمرة، والى ان تجف مناديل العيون فانها كانت بالدموع عصرة. اشرع

---

(١) الهلال هنا رمز للعيد، وقد كان شوال اشرف بما حمله اليه (ويعني الرسالة) مما يحمله هلال العيد عادة.

في تعريفه مواقع كتبه التي لا يصده عن طبع بلاغته فيها وقائع الحدثان ، ولا يقرنه بعدهما ببليغ قارن الا شهدنا انه لمن الحدثان . فكل لفظة غريبة ، وكل نكتة بعيدة قريبة . صناعته نتنفق بها عليه ، وبضاعته ردت اليه [١] ، وثبوت ذهنه وهو من العارض (٨١) المشار اليه ، في سجنه دليل على ان الطبع شجاع ، والفكر صناع [٢] ، والبلاغة طباع ، وقلمه ملك في كرسي مملكة يده نافذة الامر مطاع . واما النجم واشراقه في الآفاق الناصرية فذلك بالرتبة العمادية وليس بورش المحراب [٣] بل ورشان [٤] البستان . وقد سررت بانتفاض عصفوره اذ بلله القطر [٥] ، وتنبه حظه اذ رقد عنه الدهر ، وبالعناية العمادية له فانها ملاك الامر ، وقد كنت كتبت له كتابا على يد مسافر استقدم به مواصلته المسافرة ، واستنصر عنايته فعهدي به من الامصار فصار من المهاجرة . وقد كنت ابره في سهام ذوى القربي فقد (٨٢) صرت ابره في سهام المؤلفة قلوبهم :

كأنك لم تكن خدني وانسي ولم اقطع بك الليل الطويلا

فغلبنا على ليلة من يطاع نهارا وليلا ، وصارت قطرة سلطان رئاستنا سيلا وبالجملة فهو جميل الاخلاق ظاهرها ، الا انه جبار القطيعة كافرها ، وانا استمين بايمان سيدنا على كفره ، ومع ذلك فاستخلف على عقوقه سجية سيدنا في برّه .

ولقد اردت الصبر عنك فعاقني علق بقلبي من هواك قديم

يبقى على حدث الزمان وريبه وعلى جفائك انه لكريم

والرقاع كانت وصلت وصفا ورد الاهتمام (٨٣) واغنى سيدنا ما اغنى الغمام . وتمت المكرمة الا انه صرف عنها العين برقعة الشريف ، فسألنا في مبلغ فجدتم

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : " ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغي هذه بضاعتنا (ردت) الينا ونمير اهلنا ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير" (سورة يوسف ١٢/٦٥) .

(٢) صناع : حاذق .

(٣) الورش الخفيف النشيط من الابل والمحراب : صدر البيت واكرم موضع فيه .

(٤) نوع من الحمام البرى اكدر اللون فيه بياض فوق ذنبه .

(٥) تضمين لبيت من شعر ابي صخر الهذلي :

" اذا ذكرت يرتاح قلبي لذكرها كما انتفض العصفور بلله القطر"

من كتاب " شرح اشعار الهذليين" للسكرى ، تحقيق عبد الستار فراج ج ٢ ، مكتبة دار العروبة — القاهرة : ص ٩٥٧ . وفي مكان آخر :

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

الاغاني ج ٢٣ ص ٢٧٩ تحقيق عبد الستار فراج ، دار الثقافة — بيروت ١٩٦١ .

بثلثه [١] حتى كأنكم اخذتم في المشفوع بقول جده الشافع لكم [٢] ان شاء الله . والثلث كثير والمسؤول فيه شيء ان اعطاه السلطان فما ينتقص بل يزاد به اجرا ، وان لم يعطه فما توفر على ديوانه وفرا . لانه مكان واحد في اقليم مقطع، ان ترك فالمقطع يقطع عليه الطريق ، ويأخذه لا محسوبا عليه ولا واصلا الى مستحق له فيره . فينعم بالمعاودة في بابه والاعلام . ان هذا رجل شريف في اصله فقير في نفسه قد حمل عني في هذه السفرة خدمة سلطانية (٨٤) يستحق بها اضعاف ما سأل فيه . فانه يكتب عني وقلمه ما يجف، وشغله لا يخف. ولو وكل الامر الى كتابتي ويدى المرتعشة وحروفي الوحشة ، لكلفتم اشد الكلف بقراءة الغلقطريات، والانشاد بلا نظم للسبع المعلقات. وما اقنع في هذا الا بكتاب مبتدا يشعر فيه انه قد انعم على الشريف الحسيب نسيب الدولة ، اى على حسن بن علي الحسيني ، باقطاعه فيعمل في هذا عمل من طب لمن حب [٣] وما يستد على سيدنا باب، ولا يعجزه كتاب يبر به ام الكتاب، ويمضي الاحتساب به من ذخائر الحساب. اما اهل المنزل السعيد فلا شبهة فيما يعترض الفاقد ولا سيما الوالدة ، وقى الله الوالد .

(٨٥) وكانت لوعة ثم اطمأنت   كذاك لكل سائلة قرار

والسلامة شاملة لجميعهم ، والبشاشة فائضة على ربوعهم ببقاء ربيعهم. وكتاب سيدنا الثاني ذكرت وصوله في صدر هذا الكتاب، وصل. ووقفت على حديث غرق الكتب في البحر فعرقت وغرقت في الارض كما تقول العوام ، ولحقني ضجرٌ ضجرٌ معه مني الكلام . فما ادرى ما اقول ، وحاشى اليد الصاحبية السحابية ان تهدى البلول . وعلى

---

(١) اشارة الى الآية الكريمة : فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث (سورة النساء : ١٢)

(٢) اشارة الى الآية الكريمة : يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (سورة الانبياء : ٢٨)

(٣) ورد هذا المثل في مجمع الامثال للميداني : المطبعة الخيرية . ١٣١٠ هـ. وقد جاء بهذا الشكل " من حب طب" : قالوا معناه من احب فطن واحتال لمن يحب والطب الحذق (ج ٢ ص ١٧١)

الجملة هذه الكتب قد ضربت رقابها صبرا ، وسوفر بمصاحفها الى ارض العدو جهرا ، وماتت فاعظم الله لي فيها اجرا ، وفاتت فما السمعان القاها ولا في النشأة الاخرى (٨٦) واى شيء يقال لمهديها اهد لنا ثانية وكيف يتسع الباع للمجازاة عنها وقد ثنتها هذه الثانية . ولو جاز ان يقصد العزاء الكتب لعقدت بحيث تخرج خزائنها الخزان فارغة من سكانها واحبابها ، مسلبة من سقوفها وابوابها . ويدخل علي في المعزين ابن صورة المصرى وعبد الجبار الدمشقي وعمر الحمقي ويوسف الحلقي ، حلق المسامرة ويضبط ، ولا تفتح الحاء فيجن على الرجل ويغلط . وكان يحضر فنائم المجلد وقد لف يده بعذبته ، وفك لوالب معصرته ، وقلم غروب شفرته ، وطمس شكل نقشه الذى مجلداتها دنانير ، وعطلها وكانت في صيد الزبون له صنانير . وكان يحضر محاسن (٨٧) الناسخ راثيا لهذه الكتب بلحونه المستعذبة ، ونغماته المطربة . هذا الى جماعة النساخ والكتاب ، ولفيف المعارف والاصحاب .

فهناك سودت الدوى وجوهها   لما اسفن وشقت الاقلام

ولكن كيف يصح ان نعمل تعزية ، وقد جاءت ولله الحمد التهنئة ، ونستشعر شعار بلوى وقد جاءت الموهبة الكبرى المسلية

امل كان كمثل الشمس في بعد المكان
فدنا حتى لقد مدت للقياه اليدان
فاستردته يد الدهر فعدنا في الاماني

فيا لها من ذخيرة (٨٨)

عزت فلم تعرف الايام قيمتها ... فردها الدهر منا فيظ الى الصدف فغرقت في حيث تغرق الانوار من البحر ، وغربت في حيث غربت الشمس والبدر ، فليتها فديت بالبدر . وعجبت من كتم امرها وهو هناء ، والاعلام به هو عناء . فليتني علمت بها اولا فبقيت في متعة الامل لها . ولكن سبق اجلها مولدها ، وتقدم الظمأ منها موردها ، فتشبثت

---

(١)

(٢)

(٣)

في الخبر فانني على رأى ابي الطيب الى الآن في طوى الجزيرة[١] . في هذه الذخيرة، فقد اتت الايام فيها في صحيفتها باكبر كبيرة . وقد اطلت وهمي بها اطول، واستطلت الليل (٨٩) وركبت منه الادهم الذى لا انتظر ان يكون بالصبح الأغرّ المحجل . وسيدنا في امان الله وضمانه، وكلائته وكنف احسانه . الجماعة مخدومون بسلام يشمل جميعهم، وتحية تقضي حقوقهم، وتحيّي وجوههم، وتملاء مسامعهم، وتقرّ أعينهم، وتشرح صدورهم

تحية ود ما الفرات وماؤه باعذب منها وهو أزرق سلسال[٢]

وشرف الدين ابن القلانسي قد شغل القلوب امره، وانقطع عن اهله ذكره .

٢٧

وكتب اليه

وصل كتاب المجلس = اعلى الله قلمه وقد اجيبت هذه الدعوة (٩٠) وهو في يده، وحاط الملك ببقائه وقد حيط بتجرده وتقلّده، وجمع به شمل المحامد وكم شهدت مغيبه وما غابت عن مشهده، وابقى على الدهر سؤوده الذى اجار نبيّه من سؤوده، وفداه باوليائه واخوانه ولا كرامة لاضداده ولا نعمة لحسّده = بتاريخ ثاني عشر شوال وتاريخه خمس بقين من رمضان، ففتح له القلب بابه، ورفع له من الشغاف حجابه . وقال له اهلا على السلامة، ومرحبا ولك الكرامة، وابطأت وما كانت منك الظلامة، ودونك من الصميم دار المقامة، وفديت قلما كتبك وما قيمة الاقلام عندى قلامة . ووقفت عليه وخوافي الفؤاد (٩١) خوافق، وانسان العين في لجتـه سابح غارق . فان الاوهام قد اتسعت اوديتها، والخواطر قد اراقت ما فيها اسقيتها . ولا يتمثل المشفق الا ما يعيذ الله من وقوعه، ولا يصحو مما بين ضلوعه من ولوعه . وهذا المقام العائد به من تأخر الخبر، وتشقيق[٣] الشرح حتى يقوم

---

(١) تضمين من شعر المتنبي :

طوى الجزيرة حتى جاء في خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب

قصيدة "غيرانثى العقل والحسب"، الديوان : دار صادر، دار بيروت . ص ٤٣٣ .

(٢) سقط الزند : ابو العلاء المعرى : دار صادر ، دار بيروت ، ص ٢٢٨

(٣) شقق الكلام : اخرجه احسن مخرج .

السمع مقام البصر. والا فلا قرار على المضاجع الجمرية، ولا منام في الليالي الحشرية[1].
وسيدنا يعلم ما وقعت اليه الاشارة، وما في اخلاق صبرى من الزّعارة[2]:

يدرون ما وجدوا من حر يومهم عند الاصيل ولا ادرى بما وجدوا

وهذا العارض المشار اليه وان كان موثوقا بأن سحابته (٩٢) صيفية، وزيارته طيفية.
وانه ليس بمظنة المخافة، ولا ان سفرة العافية اليه بعيدة المسافة، فوراء ذلك قلوب لا يؤمر صبرها، وكبود لا يؤمن جمرها. والجمع بين مزاولة هذا الشأن، ومنازلة الاقران، والتدبير الى ان تحصل الصحّتان، وربما لم يساعد فيه الزمان، فان لاحت المشاركة، فهي مباركة. فكيف بالمصالحة التي قد بذلت فيها الرغائب، واستظهر فيها على العواقب.
وعرفت الاحوال سوى ذلك وما عرفتها، وقرأتها وفلـ[illegible]ـتها وما قرأتها ولا فهمتها. لان الخاطر مشدوه، ومورده مشفوه[3]. وفتنة التركمان مما لا تحكم فيه الاوهام، ولا تحتقر نار اضرمتها الايام. (٩٣) واما اهل القوام رحمه الله فلا يدع القيام في فك اسارهم، واطفاء نارهم، فالكريم صديق الدهر، والحر من يلبي دعوة القبر. واما "ستره الكريمة" بابن عمها المحمود "محمود" وما عرفت لقبه، وما يجعله برسمها من ثمن ملك فقد كنت استعجلت المجلس الكريم بهذا المهم الذى ينبغي ان تسبق به الايام، وتختار له الخيار من الاقوام.
الا ان اتصال بعد المشار اليها ببغداد، ببعدها الى اصفهان فراق في اثر فراق، وموعد لقائه معذوق[4] بيوم التلاق. والكفؤ مطلوب، وظهر الضرورة مركوب. واما المعنى الذى اشار اليه في مكاتبة بغداد بالجهر بالبسملة فانني استأنف ما اكتبه (٩٤) لان الرسول قدم رفيقه وكره تعويقه. وما الذى يظهر في هذا المعنى من المعْنى، والقلم فيه عصا الاعمى، فلعل الفكر يهدأ قليلا من قلقه، بخبر من جهة سيدنا انا بالاشواق الى ثمرة ورقه. قد تقدمت رقاع ورغبات لا يحرّك في هذا الوقت ساكن منها الى ان تنجلي الغيابة،

---

(١) ليالي البعث والقيامة
(٢) شراسة الخلق
(٣) شفه الشيء: كثر طالبوه فهو مُشفوه.
(٤) معذوق: موسوم.

ولا يرم بقرطاس منها الى ان يعد سهم الخطاب بصواب الرماية . بالله اقسم لو حملتني اعضائي المهيضة ، وجوارحي المريضة . لسبقت كل سابق ، وعصيت كل عائق . ولا ستعفيت من عشرة الاوهام التي قد حكمت (٩٥) علي بما تقصر عنه لو كنت حاضرا ، واخذت سمعي وبصري بما لم تأخذه لو كنت ناظرا ومباشرا . ولكن السبل مقطوعة بامرين احدهما بما فيها من الخطر ، والثاني بما انا عليه من الضرر . ومسير يطوى به في كل يوم مرحلة يقرب بها الخبر ، خير من مقام لا مقام فيه للقلب ولا مقر . وشرّ ما اكون اذا ورد كتاب فهو بين ان يكون بمبهج فاقول ماذا يجدد بعده ، او بمزعج فتقف بي خواطر التوقع عنده . والله المستعان واحمد الله العاقبة في هذا البيكار ، وجعل لاعداء هذا الملك شر عقبى الدار[1] . ان شاء الله تعالى .

٢٨

وكتب اليه (٩٦)

وصلت ثلاثة كتب من المجلس السامي وصلته يد الله بلطائفها ، ولا خلت يده من عوارفها كما لا تخلو الايدى من عوارفها ، ولا عدمت كتبه التي تغل الكتائب بكتبها والصفائح بصحائفها[2] . وعرف الاحوال على جليتها ، وساق اليه المحامد برمتها ، واعتدّ باياديه الجميلة التي عجز عن شكر تفصيلها بل عن ذكر جملتها . وودّ لو ان خاطره حاضر ، وذهنه غير قاصر ، وجنانه ثابت غير مغمور بهمّه الغامر . فكان يقضي حق هذه اليد الكريمة الايادى ، وكان يقوم من شكرها مقامات تسر الاولياء وتسؤ الاعادى . (٩٧) ولكنه سطرها وهمه زايد ، وخاطره مجهود بفكره الجاهد ، وذهنه كأنه مورود وكم للهم من وارد في اثر وارد ، وقلبه بشهادة الله كقلب والد على واحد من دونه كل واحد ، فمن دون ذلك الوالد كل واحد ، ونفس كالذى والذى لا يتم الا من الخط الناصرى بصلة ومن الكتاب العمادى بعائد .

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : ورد تخريج ذلك من قبل .

(٢) تضمين لشعر ابي تمام :

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

ديوان ابي تمام ١/٤٦ ، تحقيق محمد عبده عزام دار المعارف .

فهو كما حكى الله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام وبضيق صدرى ولا ينطلق لساني [1] .
وما نحن في امر قليل ، وما هو الا كزخر البحر ومد النيل . وبالله لقد اددت [2] نفسي بكل حيلة ، ورضت جسمي على كل مرحلة قريبة بل خطوة ضئيلة. على ان اركب الطريق فارفع عن ناظرى مؤونة الاسناد (٩٨) عن سمعي في اخبار المخدوم وعز نصره . فاردها من موردها ، واصدف خواطرى واخصمها بمشهدها . فما وجدت قوة تحمل ، ولا منّة توصل . فان برد السنة قد انجده كثرة الثلج ، ولبسه كل فج والبس به كل نهج . وحملت منه الرياح ما لا تثبت الوجوه بازائه ، ولا تقوى الاطراف على لقائه ، وكاد التصرف في البلد يتعذر على اقويائه فكيف بضعفائه . ولي من محضر سيدنا ما يكفيني الذى عجزت عنه من الحضور ، وما يصونني عن مقام الملوم وينقلني الى مقام المعذور . وعرفت وصول ولد الحاج العفيف صالح وسررت بجمع شمله بارك الله (٩٩) فيه وله في ولده واهله . وما عدمه سيدنا من دوابه ففي خدمة المخدوم خلف من كل ذاهب منها . فانها وحياة سيدنا ، مدها الله ، تستخلف الاعواض [3] وتمتريها . والمصالحة الموصلية لا بأس بتشديد السهم في تمامها فانها لأوزار الحرب واضعة ، ولأوزار الظهور رافعة . واهل القوام لا يغفل عن نصيبه من الوفاء لمخلفهم ، ورفع يد معنفهم . فقد ذهب صديق يفم كل صديق ذهابه ، وذهب القضاء في مذاهبه فلا يذهب بالمرء عتابه . والمولى الاخ تاج الدين [4] سيدنا ادام الله نعمته ونعمته ، مقول في النيابة عني في خدمته ، واجراني في ذلك على علو همته . واهل هذا (١٠٠) البيت الكريم اهلي فعرفهم ايها السيد منه محلي .

انى بحبلك واصل حبلي وبريش نبلك رائش نبلي

والسيد جمال الدين ابو الفتح [5] ، والولد الاجل فخر الدين محمود كلاهما بالسلام مخدوم والكتاب بمسك ذكرهما مختوم . سير مسافر الغلام بجهد المقل ، ورأيته خيرا من عذر المخل . وصحبته من الكسوة الخيشية اللائقة بالسفر برسم الخزانة التي يتولاها صالح . واوثر من الحضرة اسبال ستر الكتمان وان لا يخرج الذكر في معرض الشكر . فانه هجاء محض حوشي منه ذلك اللسان ورأى سيدنا الارشد . ان شاء الله تعالى .

---

(١) "قال رب اشرح لي صدرى ، ويسرلي امرى ، واحلل عقدة من لساني." (طه ٢٠/٢٥، ٢٦، ٢٧) قرآن .
(٢) اده الامر : اثقله وعظم عليه .
(٣) جمع عوض ، الخلف والبدل .
(٤) سبقت ترجمته . (ص ٧)
(٥) سبقت ترجمته . (ص ٢٢)

٢٩

وكتب الى العماد ايضا

(١٠١) لوكان لي = ادام الله نعمة المجلس السامي فانها نعمة مشتركة بينه وبين الاخوان ، وكتب في قلبها الاحسان كما كتبت فيه الايمان ، وعرض افعال طولها الطويلة العريضة الزلف[١] الرحمة والرضوان ، ولا اخلى منها المكان والزمان والسلطان والاهل والجيران = شكر جديد لما اقف عليه من برها الجديد الذى يخلق الجديدان[٢] وهو بحاله ، وثناء سحابه مبشرا بخصبي اذا اقلع السحاب معتذرا الى محال امحاله . لكنت اهديه قبالة ما يقبل الي من ذلك البر ، ولكنت اقوم به في الجهر جزاء لما يقوم به من امرى في السر :

(١٠٢) ان شكرى لقليل وانا املي كثيره

لم يقل فيك لساني قطّ ما استوفى ضميره

وورد كتاب سيدنا على عبده من يد ابن العميد نصر الله ، وفيه المتجددات الى يوم الاحد والكتب الواردة والاخبار التي ردت على الايام الذاهبة ، واحضرت الاعين الغائبة ، وحلى برأيها الطروس فان صفحاتها تقلل الصفائح الضاربة . وذكر الواصل ان السلطان ، نصره الله ، عدى يوم الاثنين فعلى بركة الله تعالى واسمه ، وعلى توفيق الله المصاحب له في نيته وعزمه . والله لا يبعد له دارا ، ولا يخبي له نارا ، ولا يخفض له منارا . ولا يخلي دولته من محضرها ، ولا من قلمها (١٠٣) الذى يقوم في الجفلى[٣] والجماعات مقام منبرها . وقد كثر وصول المصريين واحتجت الى ان اجدد دار ضيافة ، وما انظر في هذا ولكن في تكليفي مكاتبات سلطانية فيها وشفاعات اخوانية . بل الاخوان لا يحملون للاخوان هذه المؤونة ، ولا يصبرون منهم على هذه الرعونة . فان فعلت نزلت في هذه الطبقة ، وان بخلت قالوا بورقة . وهذه قصة من القصص ، وغصة من الغصص . وماذا يقال لمن استبضع الامل ، واتاك كما يقال من مصر على جمل ، والامر لله وانا واثق انها اذا حضرت سددت الخلل ، وان وقعت شكوى طبّت العلل . وسوى هذه الجملة فان التاج الكندى يشكر انعامها ، ويستمطر

---

(١) الزلف : جمع زلفى وهي القربى والدرجة .

(٢) الليل والنهار .

(٣) هي ان تدعو الناس الى طعامك دعوة عامة من غير اختصاص . الدعوة الجفلى ، هي الدعوة العامة لا الخاصة .

(١٠٤) اقلامها كتابا الى المستخدمين بحماة فيه فصل مشبع وقول مقنع في ان حوالته مستثناة في كل منع وعاقة، وداره على كل سعة واضاقة. وانها الا صلاء لسواها الرفع، والمخصوصية بالبذل ان عرضت عوارض المنع. وهي تفعل في ذلك ما يظهر له اثره، ويتصل به منها عاجلا خبره. والله تعالى يعينها على الحقوق واداثها، ويميت قلوب حسادها بدائها، ويجعلها متفضلة على اوليائها ببرها وبرايها. ورايها الموفق ان شاء الله تعالى.

٣٠

وكتب اليه

حرس الله نعمة المجلس السامي بشكره وبشكر اوليائه، وبشكر خلطائه في النعمة وشركائه. فان نوافلها بينه وبين الخلق (١٠٥) مقسومة، ومقاماته في حسن الذب عنها معلومة، يقترن بها مطالعة معولي في عرضها وما يجرى في عرضها على نيابته التي لا ينبو لها حد، ولا تتجه لها حجة رد، وهي على اكباد الاعداء نار وعلى اكباد الاولياء برد، وفي باطنها النور وان سكن ظاهرها سكون الزند، فما يروح الرايح منها على حرد ولا يغدو الغادى اليها من النجح الا على حرد [1]. وقد كان سار منصور نجاب الجناح فما اعلمتها به ومعولي في ذلك على همتها العالية، وعزيمتها الماضية ومشورتها المشورة الشهد وآرائها المرئية الرشد. لا عدمت (١٠٦) اياديها، ولا خلت من خليل تقرب عليه فيباديها، او تبعد عنه فيناديها. وقد كان سيدنا انعم بنجاز مسامحة وقع بها الي الطواشي قراقوش [2].

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : " وغدوا على حرد قادرين" (سورة القلم ٦٨/ ٢٥) والحرد تعني القصر، والمنع، والغيظ، والغضب، والتنحي والاعتزال .. (لسان العرب مادة حرد)

(٢) الامير ابو سعيد قراقوش بن عبد الله الاسدى الملقب بهاء الدين. كان خادم صلاح الدين، فاعتقه، فكان له شأن عند ما استقل صلاح الدين وولاه زمام القصر في الديار المصرية واستنابه عنه مدة في مصر وفوضوا امورها. بنى السور المحيط بالقاهرة، وبنى قلعة الجبل الخ .. توفي ٥٩٧ هـ. في القاهرة، وكانت ثقة صلاح الدين به كبيرة، واعتماده عليه عظيما. (ابن خلكان ج ٣/ ٢٥٤ مطبعة السعادة) وكذلك في البداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ٣١)

ملاحظة : ظهرت كلمة الطواشي كصفة لهذا الامير في ابن خلكان ج ٣/ ١٦٥

٣١

وكتب اليه

المجلس السامي العمادى اعلى الله عماده ، وادنى مراده ، وكثر اولياءه وحساده ، وعادى اعداءه واهلك اضداده . معتمدى ومستندى ، ولساني ويدى ووجهي الذى به التقي ، ولحاى (١) الذى منه اسقى ولاجله استقي . وقد علم تمادى مقامي بالشام وما لزمني فيه من الخرج ، وانه لا جهة لعليق شعير ولا لغربال تبن ولا لكف حنطة ولا لاستغلال كريم . (١٠٧) ولم ازل اتجلد الى ان اوصلني التجلد الى التبلد . وادافع الاوقات الى ان دفعتني ، واغالب الضرورات الى ان غلبتني . فلو نظرت الامر من اوله فعلت ما فعلت في آخره . وسبب ذلك انه طلب شفاعة مني الى السلطان لو عرفت انها تنفعه وتضرني لفعلتها . وما ينبغي ان يتوقف الغضب على اول ذنب لو فرضناه فهذا استعداد للقطيعة ، وارصاد للمهاجرة ، وانتظار سبب قوى التجامل ضعيفه ، واستثقل الصبر خفيفه . وسيدنا ينعم في ذلك بما يحقق فيه جميل الامل وحسن التقدير في فضل اياديه ، ويرتاد الوقت الذى يصلح للخطاب ويلقن العدل ما (١٠٨) سيدنا ملـي به من الصواب . لا برحت لسوائم الامال مرتعا ، ولسوام الحمد مطلعا . ان شاء الله تعالى .

٣٢

وكتب اليه من كتاب

وعرف الاحوال فكأنه حضرها ، وسمع كتابه فكأنه نظرها . ولاحت له من التصرفات المظفرة ما لم يستوفق مجموعه ، ووصل من الاخبار عنه ما لم يستطب والله مسموعه . وما يخسر على سلطانه الا خاسر ، وما يحكم الغائب على الحاضر . والكتب متوقعة ، والاعين متطلعة ، والنفوس كلها متجمعة على انها قد راضها لسلطانها رائض ، وما ثم من هو بلسان ولا بيد ولا بخاطر في مكروه خائض .

---

(١) لحاى : جلدى ، واللحا قشر الشجرة .

فصل : فان ساغ ذكر ذلك ،والا فيترك ورای سيدنا الموفق (١٠٩) في كل كتاب لي. والى رأيه التفويض في ادماجه ان كان مما يستحق الادماج ،واخراجه ،ان كان مما يستحق الاخراج . لا عدمته مشفقا وموقفا ومصرفا ومعرفا ان شاء الله .

٣٣

كتاب آخر اليه

ورد كتاب كريم من المجلس السامي اعزه الله بتقواه ،وسر القلوب برؤياه والاسماع بنجواه ،وحفظه في مسيره وفي مثواه ،ومراحه ومغداه ،وفسح في الخيرات مجاله ووسع مداه . تاريخه قديم وتأخر به رسوله الى ان كان وروده بعد كتاب اقرب عهدا منه . وكيفما ورد فله من القلب مكانه ،وهو الحسن من المحسن الذى لا يحيط احسانه ،وله اليد التي لا يفي بها خاطر الشكر ولسانه . وكتبه الكريمة اكد في انسابها ،(١١٠) والكرامة واجبة لشيبها وشبابها . فعلى الشاب منها رواء روايته عن خاطرها بالاسناد القريب، وللشيخ منها جلال جلائه وجه فضله بالبيان الغريب. وعرف الاخبار الى تاريخه والكتب الان متأخرة والاحاديث مختلفة ورأى سيدنا السديد في سد خلة التطلع بكتابه الطالع وخبره المحفوظ للقلوب طيبه الضائع. لا برح سارا خبره ،كريما مغيبه ومحضره ان شاء الله تعالى .

٣٤

وكتب اليه

ورد كتابا المجلس السامي لا زالت واردات الخير منه مثنى مثنى ،واسمه مطلقا في الثناء فلا يسر الغد فيه بمستثنى .وعصمني الله من الطغيان بما افناني من جواهره . فان الانسان (١١١) ليطغى ان رآه استغنى [1] . ووقفت منها على الفصيح وعلى الصريح وعلى الصحيح ، وشكرت الهمة التي تشترى الحمد بالثمن الربيح [2] ،وتباشر مطالب الاولياء بالصدر المنشرح الفسيح ،وتوردهم من قراح قرائحها كل ما يداوى كل قلب قريح ،فلله ذلك النفس النفيس

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : "كلا ان الانسان ليطغى ،ان رآه استغنى" (٩٦/٦٧)

(٢)

الذى هو نسيم والانفاس بعده ريح تذهب في الريح . وقد طال العهد بنظر وجهها الكريم ، وثقلت شنـوف الاسماع من در لفظها النظيم ، وللعين حظر هي تخطبه ، وللقلب وعد هو ترقبه ، ويأبى الدهر الا مطـلا ، وان تمضي الاوقات من حلية قربه عطـلا (١)(.....) والى هذا التاريخ فما خلوت (١١٢) من ضعف يجاذب العزمة ، ويدافع الهمة . وما وجدت للصحة الطعم الذى كنت اجده ، ولا خلوت من الحاجة الى الطبيب يتفقد المزاج ويتعهده ، والله تعالى يجدد من العافية ما يعفي هذه الاثار ، ويعفي من هذه الاكدار والى حين الاجتماع فما افنى عن كتبه التي تذكر باوقاته ، وتحث على ملاقاته . ورأيه الموفق ان شاء الله تعالى .

٣٥

كتاب آخر اليـه

ورد كتاب المجلس السامي العمادى اعلى الله عماده ، وتولى اسعاده ، ويسر مراده ، وانجح ارتياده ، وشكر الحسنيين فعله واعتقاده ، وسخر في مصالح الدولة (١١٣) الابيضين طرسه ومداده . وطيه كتاب اخواجا جمال الدين والاسراع احد النجحين ، والسلامة احد الربحين . وقد كانت الحضرة ادام الله نعمتها كتبت اليه كتابا اخشنـت فيه واغلظت ، ولكن غلظ الوالد رقة ، وان عولت فيه على غير اهتمامها الذى تكسوه بعدت عليه الشقـة . فلا تعرض نعمة الله عندها لان تمنع اهلها فضلها فليس الا بابه الذى تضع عنده كل ذات حمل من الامال حملها[٢] . واما المولى تاج الدين[٣] فقد سررت له بتقديس طريقه ، وسائني مساءته بتأخر الرسالة عن رفيقه . وما تمضي مطالعة الا شاكرة ، واما الكرة في هدية الحاشية فلا شك انها (١١٤) كرة خاسرة . ولكن تجبر كل خسران يد الحضرة العمادية التي تنفق سرفا بغير منة ولا ميزان . فقد عرفت ولكن من كتابين سبيلها انه اعطى فاوسع ، واطعم فاشبع . وقد بلغت مقصود المال قد حصل وهو يذله ،

---

(١) فراغ في الاصل بمقدار كلمتين .

(٢) تضمين من القرآن الكريم : وقد تم تخريج ذلك من قبل (سورة الحج ٢٢ / ٢)

(٣) سبقت ترجمته (ص ٧)

والدينار في كيسها وال وعلى الكريم عزله . وهيهات ان يحل عندها دار امان ،اوان يكون جوهره الا كالعرض لا يبقى زمانا بعد زمان . واما الاخبار الحرّانية [١] ففي قلوبنا منها اشد مما في اجسامكم ،والبشائر منتظرة منها على لسان السلطان ومن السنة اقلامكم . وبعد ان قامت المنجنيقات ،وقربت الاسوار من التعليقات ،وقاربت السبعة الابراج ان تكون (١١٥) السبع المعلقات . والله تعالى يرسل الينا بالاقلام العمادية المطوقات المحلقات المخلقات ،فقد اضعفت البشائر اعواد المنابر ،والتفت على ثمرات الانتظار كما يمر المحاضر . وارسل اهل الجامع ،من اؤلي علم الصلاح الجامع . سهام الاسحار مريشــة باهداب الجفون المبلولة ، واستفتحوا ابواب السماء باقفال التكتف في الصلوات المقبولة . واما ابن ابي كامل فاحسن الله جزاءها عنه طالبا وعني شافعا . واما القاضي شمس الدين فمرحبا بانواره فان كان حصل له شيء ،والا فانّا لمردودون في الحافرة . واما تعريفها بجواب ابن الزنجارى وبجواب اليمن فيكتب ماتيسر ،(١١٦) فقد قنع الله من القرآن بما تيسر . والافهام الخاصية تخاطب بالالفاظ الخاصية . وما نفيت الخصوصية عن الفاظها ولكن نفيت ما عرض به لي من النسخ فاني اخاف ان يحترق خاطرى بشواظها ورأيه الموفق .

٣٦

وكتب اليه

وصل كتاب المجلس السامي ادام الله نعمته ونعيمه ،وتقدمه وتقديمه ،وكرمه وتكريمه ، ولا اعدم قلمه ثغور الملك واقاليمه ،واتبع ذكر بلاغته صلاة كل بليغ وتسليمه . وهي كتب كنعيم اهل الجنة كلما نفد جدد ،وكلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل [٢] .

---

(١) سكة معروفة باصبهان . وينسب اليها قوم هناك ،وتعني الاخبار التي تأتي من حرّان . (معجم البلدان ،ياقوت ،ج ٢)

(٢) تضمين من القرآن الكريم : " وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجرى من تحتها الانهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابها ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون" (سورة البقرة ٢ / ٢٥)

فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين . فطفقت اخصف علي من ورقه [١] ،وجعلت (١١٧) اقبض النجم من افقه . فلا عدمت هذه الكتب الا برؤية كاتبها ،ولا زلت افزو كتائب الهموم بكتائبها . ولا يزال القذى على ناظرى مشتملا ،والهم بخاطرى حالا لا يبغي عنه حولا . الى ان اقف على كتاب منه فاقول للهم طر او قع،وخذ او دع ،ووراءك فانه اوسع. ويهدى الي هدى وهدوا ،ويورد ني عللا وعلوا ،ويجد د لي عن كل محزون عليه انسلالا وسلوا . ففديت منه خير من فديت ،واراني الله منه اكرم من رأيت،ولله د ر من اذا أشرت اليه فهم وعنى عن كيت وكيت.

فصل : فان المعاني بالفاني كثير والعاني بالفقير فقير. وما دام المكان شاغرا فما يعدم فما فاغرا .

فصل : ادام الله خدمة التوفيق لمقاصده ،(١١٨) وصحبة النجاح لمواعده ، وملازمة الصفاء لموارده ،ومقارنة الوفاء لمعاقده ،ومصاحبة الانس لمعاهده ،وتجلل الجلال لمشاهده ،وتحمل الصدق لمحامده .

فصل : ومن كان سلاحه التوقي فيساعد عليه ،ومن كان رضاه القول البر فيجاب اليه . ولكل امل امد ،ولكل جامح بالقضاء اذا مرد مرد .والله الموفق .

٣٧

وكتب اليه

ترد هذه المكاتبة الى المجلس السامي لا زال مجلسه مورودا ،ومحفله مشهودا ، وجده مسعودا ،وقاصده مقصودا ،ووليه محسودا ،وحسوده محصودا = من يد القاضي ثقة الملك ابن الذروى واحسبه يسمني برحم قد جعلت ،سلالها مفوضا الى فيض سحابه ،

---

(١) تضمين من القرآن الكريم: " فأكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى ادم ربه فغوى " (سورة طه ٢٠ / ١٢١)

وكان له والد ما كان وطنه في النهار غير حلقته ولا وطنه في الليل غير محرابه . وهو الان طريح غربة ،طليح نكبة . (١١٩) صريع زمان لا يستقل صريعه ،قطيع المسعى والوقت لا يوصل قطيعه واوثر من. انعامها ان تنوب عني في قضاء حقه ،وايصال رزقه . اما بكتاب انه وفد الى الابواب ،وانه مستقل مع الحاجة رشيد مع الشباب ،ولا يكله الى لسانه فان الحياء منه يستلبه ،ولا على اللقاء بوجهه فانه لا يخالط حيث السؤال طيبه . لا برح جميلها بارحا خفاؤه ،وقلمها لا يرضى بان السيوف في تدبير الممالك اكفاؤه . ورايها الموفق .

٣٨

ومن كتاب

ورد كتاب المجلس السامي لا زال فضله موردا ،وجنابه (١٢٠) مقصودا ،ومجده محسودا ،وعدوه محصودا . ووقف الخادم عليه شاكرا للهمة التي ما غاب ان حضرت ،ولا نام ان سهرت ،ولا انصفها وان شكرت ،ولا عذر نفسه في قضاء حقوقها وان عذرت .

٣٩

وكتب اليه

وردت مكاتبة من المجلس السامي اعلى الله محله ،وحمل رحله واحله من كل مكان اجله ،واهلك عدوه واذله ،ولا عدم العدو في كل يوم من نغصه اذى له . وكان وروده ايرادا للزلال على الصدى ،وايقادا للنار على الضلال فلا عدمت منه هدية الهدى ،ولا برح قريب المد بعيد (١٢١) المدى ،زائدة اياديه على العد ويده على العدى . على ان حسنات افعاله ،وخلال جلاله ،وفضل افضاله ،ومشيم طهارة شيمه وحاليات احواله ،وتبرعه بالبر وابراره فيه على اماني وافديه ،وآراء سائليه ،ومقاصد قاصديه ،قد حمى الصدور ان تؤوى

فيه قلوبا معادية ، ومنع الصدور ان تجن فيه ضمائر جانية . فله جنود من قلوبها مجندة ، وله جدود من مخبآتها متجددة . وهو بها املك من اصحابها ، كما ان كلماته لها املك لها من اطرابها [1] . وقد احلته في وطنها ، واوردته في سكنها . فما امسى بحيث يخشى عليه في معاملها الا وحشة الانفراد ، (١٢٢) ولا يبعد ان تسمى بحلوله فيها ارم ذات العماد [2] . وعرف الجوارى في البحر وفي البر . وجدد ما ليس عنده عرفه وما ليس يريد سيدنا سواه من الشكر ، وجميل الذكر . ووثق الى قرب موعدها وصدقه ، ويقين ظنها وحقه ، بان السفرة ان شاء الله يسفر وجهها ولا يتنقب ، والعدو يولي مدبرا ولا يتعقب ، والامل يسبق اختصاره استطالة من يترقب . والله يحقق المخيلة الجميلة ، ويفتح للدولة بسيوف كتائبها وبقلم كاتبها الفتوح الجليلة . والكتب المصرية متوقعة الوصول ولا بأس بان تبتدىء الحضرة بالتذكار كما يكتب فان (١٢٣) اشد مع البعاد ، وموقع الكتب الطف مهما تقارنت بكتب البلاد . ورأيه الأعلى ان شاء الله تعالى .

٤٠

وكتب اليه

كتب المجلس السامي اسبغ الله فضله ، واعلى محله ، وقرن بالتوفيق عقده وحله ، وبلغ هدى الشكر من فعلة مخله ، وروض تدبيره جدب الملك ومحله . اذا وردت افادت وتعافت الادباء من معارضتها وتفادت ، والزمت اثقال المنن فآدت [3] ، ووصلت من القلب حيث اراد كاتبها وزادت . وبالله اقسم لقد بذلت المجهود ، وما من شرط بذله بلوغ المقصود .

فصل : فينعم بكتاب الى والي الاسكندرية بالمأمورية من ذلك فانها (١٢٤) ظلمة مظلمة . وقد سومح بالكثير ، ونوظر في هذا القليل الحقير . وجرت على القلم العمادى راحات

---

(١) اطرابها : اشواقها ، طرب : اطراب . لسان العرب ، مادة طرب .

(٢) ذكرت في القرآن في سورة الفجر وقالوا انها مدينة . وهو الرأى السائد بين المفسرين. وقيل انها قبيلة ضربها الله لخطاياها .

(٣) آدت : ثقلت .

وسامحات، فيجعل هذه من عرضها ، فانها مما تيسره يوم عرضها ، ان شاء الله .
بعد كتبه ورد من شيدنا كتابان شرحا الصدر ، وسرا السر ، وسريا الهم ، ولقياني بالفتح ولقيتهما بالضم.

فصل : واما التذكرة فما عندى جواب الا المغالطة والمداجة . فالمحاقة[1] توحش، والمناقشة تفحش. وادفع بالتي هي احسن[2] ، والبس صبرك على الذى هو الين . واغلاق هذا الباب خير من فتحه ، ودمل هذا الندب خير من توسعة جرحه .

٤١

وكتب اليه

وقف على الكتب العمادية السعيدة المسعدة ، (١٢٥) المؤدية الاخبار السلطانية المؤيدة . لا برحت يد مسطرها ما عليها مسيطر ، واقلامها يفتق ثمر الرياض عارضها الممطر . وشكا الاوام ، وود لو ارتشف الانامل فان لم يصلها فالاقلام . وعرف ما شرحه من اخبار خروج الفرنج متهاجمين ، وعودهم راغمين ، وقرعهم بأسنان الرماح الى ان قرعوا السن نادمين .

فصل : والسعيد من امكنته فرصة فانتهزها ، ولاحت له مكرمة فابتزها . لا سيما مع يد لها اياد ، والواحدة عندها بآحاد . والله تعالى يعين سيدنا على المكرمات يرفع عمادها ، وينجز ميعادها . ويخوض فيها المشقات ، ويختصر اليها الطرقات ، ان شاء الله تعالى .

---

(١) حاقه : خاصمه ورافعه وادعى انه اولى بالحق منه .
(٢) تضمين من القرآن الكريم : " ولا تستوى الحسنة بالسيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" (سورة السجدة ٤١/ ٣٤)

٤٢

(١٢٦) وكتب اليه

ورد على الخادم كتاب سيده لا عدم فضل قلمه ويده ، ولا خلا من الحسنات المقسومة بين امسه وغده . ولكل يوم فيها نصيب ، ولكل طالع فيها سعد غريب. وكان بعيد العهد به وشديد التوقع له ، ومعقود الناظر بالطريق شوقا اليه. وعرف ما شرحه سيدنا بحسن ايراده ، واستضاء بطلة مداده ، وجرى على العادة في شكره واعتداده. فاما اخبار صور فان الله سبحانه وتعالى لا يبعد مرامها ، ولا يمنع الكفر اسلامها . الا ليزيد موقع حلاوة الظفر بها ، ويضاعف المشقات للاجر عنها (١٢٧) والا فان كل محصور في سور غير صور ، لا بد له ان يلقي بيده ويلين ، بعد تشدده ، ويرى لنفسه رأيا غير الذى رآه اليوم في غده . وما ثم الا من يقضي الحق العمادى ويوجبه ، ويستطيب كل مطلب له ويستعذبه . فاما مكاتبة سلطانية الى السلطان في معنى مصرى او شامي من المقيم بالمخيم ، فان الوقت لا يحتمل ان يشغل الخاطر عما هو بصدده ، وانما تكون الصدقات والصّلات عند مستفتح السرور ومتجدده . وانا قد رق وجهي عن السؤال ، وانف قلمي من الابتذال ، وعندى جماعة تدفق قد هان علي اليوم نحلتهم من المال والنزل والانزال ، (١٢٨) ولم يهن علي من يكرر التثقيل والتعرض للاستثقال .

٤٣

وكتب اليه

وصل ، وصل الله حضرة سيدنا وامامنا عماد الدين [1] بوصائل لطفه ، واعلى يدها على غيظ الحسود ورغم انفه ، وحفظها بما حفظ به الذكر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه

---

(١) لعله عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن اتابك زنكي تملك حلب بعد ابن عمه الصالح اسماعيل فنازله السلطان واخذها منه وعوضه عنها بسنجار. كان عادلا متواضعا ولكنه موصوفا بالبخل . توفي سنة ٥٩٤ (شذرات الذهب للحنبلي ٤ / ٣١٦)

ولا من خلفه[1] كتاب جعدته اكبارا له ،ولو كان الى غيرى ادعيته متكثرا به . ومكثرا بالذكر الذى يبقيه ويبقي يد المذكور ،وتشبعا بالمحامد التي فيه وان كان المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي نور ،وانشراحا للشرح الذى فيه شفاء لما في الصدور ،واستضاءة بتلك (١٢٩) الانفاس التي اذا كانت الانفس في ظلمات بعضها فوق بعض كانت نورا على نور. وعرف الجوارى من جوارى اقلامها التي هي في يدها وفي البحر كالاعلام[2] ،والطوارى من طوالع بيانها التي منها رجوم للشياطين ومنها هداية الانام. واعتد بالايادى وعددها ،ونهج طرق المحامد وعبدها ،وبالغ في شكر المنة البليغة بها وتقلدها . والاحوال ان شاء الله تعالى مؤذنة بان الاسلام يقيم على الصخرة المقدسة مؤذنه ،والقرائن مومئة الى ان العواقب مسفرة عن شفاء كل نفس مؤمنة . فما بعد هذه الا البطشة الكبرى ،بالكفر والنهضة العظمى الى العقر. وكثر وصول فقراء امراء (١٣٠) المصريين في هذا الوقت منتجعين ،وتوسعت الكلفة بهم بدمشق واستبعدوا الطريق الى المخيم الناصرى واستقربوه الي . والوادي غير ذى زرع[3] والعذر لم يورد على قابل .

٤٤.

وكتب الى الديوان العزيز

اعز الله انصار الديوان واعلى سلطانه على كل سلطان ،وزاد بسطة احسانه على بسطة كل احسان ،ورفع يده التي ليس للسان احد بشكرها يدان ،ولا عدمت دولته ان يكون لها من الاولياء فتكات الشجعان ،ومن الله وقايات الولدان . واطال باع انصارها يوم الطعان ،حتى تطول سواعدها بما (١٣١) حملته من اللدان[4] ،وانفذ الليل والنهار

---

(١) تضمين من القرآن الكريم : "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد" (سورة السجدة ٤١/٤٢)

(٢) تضمين من القرآن الكريم : "ومن آياته الجوارى في البحر كالاعلام" (سورة الشورى ٤٢/٣٢)

(٣) ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ..الخ (سورة ابراهيم ١٤/٣٧)

(٤) اللدان : الرماح

بامره فهما لولاية امره المتقلدان. واخمد بنوره كلمة الكفر التي هي نار، واخرج قلوب اهله من صدورهم فلا يحجبها صدار. وصان به انوارالاسلام عن المحاق فلا يكون لسرار الــــى بدوره بدار، وشرد بجوده المحل حتى لا يلم من منازل اهل ولايته بدار.

وردت على الخادم مكاتبة شريفة اصبح الشكر مكاتبها، فهو يؤدى نجومه ويطلعها، بل عتيقها فله من ولائها انشاب يصلها ولا يقطعها. ووقف لها ووقف عليها واستوقــــف الدهر بها فالدهر لما فيها سامع، (١٣٢) طائع، ولو مثل لمثل كما مثل قلمها وهوساجد راكع. فلولا امتزاج نهار طرسه بليل نقسه[١] لا ُمد النهار وانجده. وطرد الليل وعلس[٢] مطرده. ولكنها مكاتبة عدلت بين وليبيها من ملويها[٣]، وجاءت سابقة الى الفضل فمــــا تدرك الرياح المصلية صلويها[٤]. ولله تلك الاشارات المشورة شهدا للذته فرض الحمـــد على الالسنة الحامدة، وتلك العبارات العبيرية نفحا لطيبه شرع سجود الموارن[٥] الساجدة.

٤٥

وكتب اليــه

ادام الله ايام الديوان وبسط يد مالكه، وجعل الارض في قبضة بسطتها، وزاد سلطان عزه باستحقاق امارة اهلها (١٣٣) وتدبر خطتها، وقد باع اقتداره الى ان يحيط بها احاطة دائرة الافلاك بنقطتها، واعجل اعمار اعدائه عن بلوغها الى مدى هرمها بفوت غبطتها، وموت عبطتها[٦]. وردعلى الخادم ما انعم به عليه، واقر ناضرة ناظريه، وملاءت يده الحسنى يديه، ووقف عليه فوقف الشكر عليه. وتأمل منه ما امل من الفضل البارع الباهر، والاحسان الظاهر

---

(١) النقس : المداد .
(٢) علس : سواد الليل .
(٣) ملويها : مثنى ملوان : الليل والنهار .
(٤) صلويها : وسط ظهرها .
(٥) الموارن : جمع مارن وهو طرف الانف او ما لان من طرفه .
(٦) مات عبطة : مات شابا صحيحا .

المتظاهر، والكرم العامر الغامر، والجود الجود[1] الباكر، الذى يتولى تذكير الذاكر، وينبت شكير الشاكر[2]، وينهي اوائل لا تنتهي الى اواخر، وكتبه بمنقبة[3] البحر في الغيض فلا غرو ان تروى الزواخر، (١٣٤) ويجلى بنقسه النجم من النور فلا غرو ان تزوى الزواهر. ومنزلة خلفاء الله من الانعام، كمنزلتهم في الليالي والايام. اذا اتى انعامها اتى اتيا، واذا رفع للنواظر رفع اهلها مكانا عليا. وآذار اتي بسببه قبل نسبه، وباحسانه قبل حسبه. وكان له البسطة كما لمسديه، وكان له المجد كما لمجديه. وفاه وفاح فلا يستطاع كتمانه، وراق وراع فلا يجحد مكانه، ورأى وروى قبل ان يفض كتابه بل قبل ان يقرأ عنوانه. وسار خبرا، ونزل اثرا، فسر سمعا ونظرا، وتهلل نورا، واستهل مطرا، ونبت غرسا وفتح نورا، وعقد ثمرا. واجتمع فيه في حين واحد المفترقات في الاحيان، واستقل (١٣٥) في الذروة بغير تدرج المطعمات[4] في الان بعد الان. كذلك كتب خلفاء الله وكلامهم في الكلام، اذا فضت محاريب كتبهم سجدت القلوب وركعت بين ضلوعها، واذا نشرت رياضها تنزهت الاعين ورتعت فلا يرد عنان رتوعها. وما زاد الوصف ولا غلا، ولا زوّق اللسان ما روى، وما كذب الفؤاد ما رأى، وما زاد القلم ولا طغى، ولا علم الواصفين الا فضلهم وهو شديد القوى[5]. ادام الله على الخادم نعمة وليه، ولا اخلى روضه من وسمي[6] فضله ووليه. واجار قلبه في الدارين من داء الدين بولائه وولاء اوليه. ان شاء الله تعالى.

٤٦

(١٣٦) وكتب

احق الادعية بان تخلص فيه نية رافعه، ويؤمن عليه قلب واعيه ولسان سامعه، دعاء عاد على الداعي والمدعو له وعلى الخلق اجمع باشتراك منافعها ومنافعه وذلك الدعاء للديوان

(١) الجود: المطر الغزيز
(٢) الشكير: ما ينبت في اصول الشجر الكبار، صغار النبت والريش بين كباره. وينبت شكير الشاكر اى يظهر ما في نفسه من مشاعر الشكر.
(٣) المنقبة: الطريق في الجبل
(٤) المطعمات: جمع مطعمة اى شديدة الاكل، وهي ايضا القوس، والمخلب. (لسان العرب مادة طعم)
(٥) "ما كذب الفؤاد ما راى" "وشديد القوى" "وما طغى" هذا كله على مثال الاسلوب الذى نزلت به آيات سورة النجم (١—٢٠) وقد سبق ان خرجنا "وما كذب الفؤاد" في مكان اخر سابق.
(٦) الوسمي: اول مطر الربيع.

العزيز، اجاب الله في مالكه كل دعــوة صالحة، من كل نية ناصحة وغير ناصحة، واوضح به ادلة الحق التي هي بقومه وقيامه واضحة ، واظهر من معجزات الهدى به ما يرمي كل جانحة من العدو بجائحة ، وكل جارحة منه بجارحة، ونسق لديه عوائد السعود حتى تشبه كل ليلة في ايامه البارحة. قدم على المملوك من الديوان (١٣٧) كتاب شريف اضاءت الخواطر لمقدمه ، وصارت سماء بانجمه ، وكانت كنانة لما اشتملت عليه من اسهمه ، وترقى اسطره درجات فنال اسباب السماء بسلمه [١] ، وتوضحت جادة التوفيق بمعلمه وخطــر في السعادة بمعلمه ، وعنت وجوه السيوف اجلالا لقلمه. وتلاه فكأنما تلا منزلا ، وشافهه فكأنما شافه مرسلا ، ووردہ فكأنما ورد منهلا ، وتقلده فكأنما تقلد منصلا ، وامرج ناظره في ناضر ربيع سكنت شمس الهداية منه حملا ، وقبلة فعلت كل الف منه همزة من قبلة. وجنى منه حبا ابى شرف نسبه ان يشهــد (١٣٨) على شهده انه من نحله نحلة ، وعلى جنته انه نخيلة نخلة . وتأمله ملقيا للسمع وهو شهــيد ، وناداه فلباه من قلب قريب من مكان بعيد ، وعاده من الانعام عيــد ، فعليه من الكتاب ثوب جديد ، وفي يده من قوة النفس سيوف حديد ، وزاد استمساكا بحبل الولاء الذى هو الزم له من حبل الوريد ، وعجب لبلوغه من الولاء غايــة لا مزيد عليها والآلاء من هذا الديوان متوالية المزيد ، ووقف منه على بئر غير معطلة وآوى منه الى قصر مشيد ، وضرع الى الله ان لا يحلىء الآمال عن مورده المورود ، (١٣٩) ولا يخليها الا بصوغ انعامه المودود : وان لا يقلص ذلك الظل الذى امارة امتداد عمر الدنيا امتداده ، وان يشيــد اركان تلك الخلافة التي طاعتها ايمان كل خلق ومخالفتها ارتداده.

٤٧

وكتب

الدعاء للقائمين بامر الله نعمة على الداعي تعود عواقبها ، وفائدة به تتصل مناسبها .
فان المصلي على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجــدد لايمانه ، والمتبــع له في الصلاة بآلة تابع لاحسانه ، وكذلك اذا ذكر امير المؤمنين ذاكر وجب ان يروض ديوانــه

---

(١) ومن هاب اسباب المنايا ينلنه ولو نال اسباب السماء بسلم
ديوان زهير بن ابي سلمى — تحقيق كرم البستاني — مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤
ص ٣٠)

العزيز، اجاب الله في مالكه كل دعـوة صالحة، من كل نية ناصحة وغير ناصحة، واوضح به ادلة الحق التي هي بقومه وقيامه واضحة ، واظهر من معجزات الهدى به ما يرمي كل جانحة من العدو بجائحة ، وكل جارحة منه بجارحة، ونسق لديه عوائد السعود حتى تشبه كل ليلة في ايامه البارحة . قدم على المملوك من الديوان (١٣٧) كتاب شريف اضاءت الخواطر لمقدمه ، وصارت سماء بانجمه ، وكانت كنانة لما اشتملت عليه من اسهمه ، وترقى اسطره درجات فنال اسباب السماء بسلمه [١] ، وتوضحت جادة التوفيق بمعلمه وخطـر في السعادة بمعلمه ، وعنت وجوه السيوف اجلالا لقلمه . وتلاه فكأنما تلا منزلا ، وشافهه فكأنما شافه مرسلا ، ووردہ فكأنما ورد منهلا ، وتقلده فكأنما تقلد منصلا ، وامرج ناظره في ناضر ربيع سكنت شمس الهداية منه حملا ، وقبلة فعلت كل الف منه همزة من قبلة . وجنى منه حبا ابى شرف نسبه ان يشهـد (١٣٨) على شهده انه من نحله نحلة ، وعلى جنته انه نخيلة نخلة . وتأمله ملقيا للسمع وهو شهـيد ، وناداه فلباه من قلب قريب من مكان بعيد ، وعاده من الانعام عيـد ، فعليه من الكتاب ثوب جديد ، وفي يده من قوة النفس سيوف حديد ، وزاد استمساكا بحبل الولاء الذى هو الزم له من حبل الوريد ، وعجب لبلوغه من الولاء غايـة لا مزيد عليها والآلاء من هذا الديوان متوالية المزيد ، ووقف منه على بئر غير معطلة وآوى منه الى قصر مشيد ، وضرع الى الله ان لا يحلئ الآمال عن مورده المورود ، (١٣٩) ولا يخليها الا بصوغ انعامه المودود : وان لا يقلص ذلك الظل الذى امارة امتداد عمر الدنيا امتداده ، وان يشيـد اركان تلك الخلافة التي طاعتها ايمان كل خلق ومخالفتها ارتداده .

٤٧

وكتب

الدعاء للقائمين بامر الله نعمة على الداعي تعود عواقبها ، وفائدة به تتصل مناسبها . فان المصلي على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجـدد لايمانه ، والمتبـع له في الصلاة بآلة تابع لاحسانه ، وكذلك اذا ذكر امير المؤمنين ذاكر وجب ان يروض ديوانـه

---

(١) ومن هاب اسباب المنايا ينلنه ولو نال اسباب السماء بسلم
ديوان زهير بن ابي سلمى — تحقيق كرم البستاني — مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤
ص ٣٠)

باهداء السلم الى (١٤٠) ديوانه.على انه يهدى السلم الى داره، ويضيف اللمعة من اللمعة الى انواره، فعلى هذا يخلص الخادم فيما يدعو به راجيا مع حضور اسباب القبول، رفع حجاب الوصول، فيقول ادام الله للديوان العزيز ما ادامه منه يعني النعمة، وافاض عليه ما افاض به يريد الرحمة، واوجب به ما اوجب له يشير الي العصمة، واسعد الله وليه بطاعته، وجعله بها خير خلقه كما اسعد بطاعته خير خلقه من هذه الامة. يطالع بان المثال الشريف ورده من الديوان العزيز فأبى له الضلال نوره، واناله الهدى (١٤١) والهدو اسفاره وسفوره، وجلا وجله وملاء امله حبيره[1] وحبوره، وما عدت ان غدت جُبّتُه[2] وحريره جُبّتَه وحريره، وراض طرفه في طرف روض انف ان يعبر عنه الا عبيره، وحلاء عنه الايام واحله الدرجات العلى فهو سواره وسوره وسريره، واطلق لسانه بالدعاء وعقل خاطره بالولاء فهو طليقة وهو اسيره. وتضمن من الانعام ما يضمن له الرى المرئي وصار المسموع به من الفضل المرئي. وساق له النصر في جوامع كلمه، ونشر عليه الانجم من مواقع قلمه، واطلع عليه السعادة من مطالع حكمه، وعده (١٤٢) عِدّ وروده بل طوفان انجاده بل سفينة نجاته بل جودي معتصمه. وتناسقت فيه الوصايا التي استشرفها، وتلاحقت فيه العطايا التي ارتشفها، وقام القلم رسولا من الضمير يتلو صحفها، وراقت منه اوراق هم ان يتبع اباه فيخصفها[3]، واجتهد في نعوتها الحسنى على انه عنتها لما نعتها وما انصفها لما وصفها.

٤٨

وكتب

اشرف الدعاء واجدره بالقبول، واحقه ان يكون على ظهر الاجابة المحمول، واجرأه بان يقتل الدجى بسيف نوره المسلول، ما رفع بغير تكلف، وصدر بغير تعسف. وما سبق اللسان فيه الضمير، وما نادت جيشه النعمة الراهنة النفير النفير. (١٤٣)

---

(١) حبير : الحبير من الثياب : الناعم الجديد، البرد الموشى

(٢) جبته : سترته

(٣) سبق تخريج قرآني لمثل هذا التعبير، وتكرارا، فهو في (سورة الاعراف ٧/٢٢)

وذلك الدعاء يصدر به ديوان العمل، فيما يصدر الى ديوان الامل، العزيز النبوى اعلى الله ابدا شأنه، وبسط على الخلق حسناه واحسانه، واعذب وروض جنابه وجنانه، وذم به الى الكافر كفره واحمد به الى المؤمن ايمانه، واودع به قلب هذا وقلب هذا خوفه وامانه، وبصر آراءه ونصر راياته ونضر زمانه، وقصر في كل مطيلة للعناء عناءه واطال في كل مقصرة للاعنة عنانه. ورد الكتاب الكريم الذى يكاد يسمع الصم، ويخضع الشم، ويلقح العقم ويستنزل العصم[1]، ويوضح شيات وجوه الايام الدهم، ولو كان الى الدهر لأقلع عما يقرع به في غير ايام مولانا من الظلم. وجد الجود فجد الحمد، وانار التوفيق فاستصبح[2] (١٤٤) الرشد. واحرز السبق فارس معناه الذى امتطى ظهر لفظه، واصلحت هدايته بين كل عدو لنفسه وبينها فما عدله منه صديق من حظه، وتقاسمته الجوارح فما صدف سمع عن كلمه ولا قلب عن وعيه ولا صدر عن حفظه، ولا طرف عن لحظه، فاذا من انعم بنه، قد اعداه بعدله، وارسله رسولا امينا على فضله. قسم فعدل، وافضل فاجزل. وبلغ فلم يكن في بلاغ بلاغ، وفتح زهرا ما كان مثله مما يطاول اليه باع زهر باغ، فلله هو من كتاب ولله قلمه فهذا اورد ما ساغ وهذا قلد ما صاغ.

٤٩

ادعية (١٤٥)

ادام الله سلطان الديوان نافذا سلطانه على السلاطين، محكمة سطواته على الساطين، لاصحة نظرات تفقد اوليائه حوطة المحتاطين، مصرفة انواره للمؤمن صارفة شهبه للشياطين، دائرة كؤوس محامد عطاياه بين خواطر المشاطين، قاصرة دوافع بأسه اعناق العادين واعناق العاطين.

---

(١) العصم: الظباء التي في ذراعيها او في احدى ذراعيها بياض وسائرها اسود او احمر. ويستنزل العصم، اى يستنزلها من خبائها كما جاء في شعر لامرؤ القيس:
"ومرّ على القنّان من نفيانه فانزل منه العصم من كل منزل"
الديوان ص ٦١، دار صادر دار بيروت.

(٢) استصبح الرجل: اوقد المصباح واستضاء. استصبح الرشد اى استنار بنور رشد الكتاب الذى يمتدحه.

آخر : ادام الله ايام الديوان تمتاح [1] اقلامه الدر من بحار مالكه ، وترتاح سيوفه الى ايراد الجاهل بحقه موارد هالكه ويسير النصر جيشه فتسير السماء فوق اعلامه والارض تحت سنابكه ، وتجلى على عين عنايته خلاص الاخلاص الذى يزيد نورا على نار سابكه، وتقضي ديون ديوان خلافته بتعظيم ما عظم الشرع من مشاعره وبينه من مناسكه . (١٤٦)

دعاء آخر

ادام الله دولة مولانا امير المؤمنين ورفع شأنها وخفض شانئها ، ولاعدمت اسماع اوليائها لسان مهنئها ، وثنيت اعاديها يد هانئها ، وعلت رؤوس عصبها العادين الى مهوى مواطئها ، ودامت بحار جوده تغرق الآل بلجتها ولا تصل الى شاطئها ، واطاعت الايام جده طاعة تأخذ بنواصيها . ولا تخاف من كذب كاذبها ولا من خطأ خاطئها ، ودامت الاقدار دولة له بسعود لا تني في توفير متوافيها وحث متباطئها .

دعاء آخر

ادام الله ايام الديوان مقبلة عليه وجوهها ، مصروفا عن (١٤٧) افنيتـه مكروهها ، مرتفعة مكارمه عن الاشباه فلا يصح الا توحيدها ولا يبطل الا تشبيهها ، منبهة عزماته لما ولاها الله من امور الخلق قبل ان يمر بها تنبيهها ، محقا للحقائق التي تمضي على عذر فلا يلابسها تلبيس الخواطر وتمويهها ، قاضية اوامره على وجهها ولو كان الى مظهر الكواكب توجيهها .

دعاء اخر

ادام الله ايام الديوان مسلوكة اليه السبل ، مشرفة منه الكتب والرسل ، مقدمة فروض حمده الشاغلة على مهمات الشغل ، متبعة اقلامه اثار الايام بالاحسان تتبع اثار الاسنة بالفتل ، مليئة بـغـلّ شبا[2] الحرب (١٤٨) اذا كثرت عن انيابها العصل [3] ، واقية موالاته من حوادث الدهر ما لا تقي الدروع الحصينة والنثلة [4] الفضـل .

---

(١) تمتاح : تستخرج
(٢) شبا الحرب : اتقاد نار الحرب
(٣) العصل : المعوج في صلابة
(٤) النثلة : الدرع الواسعة.

٥٠

ادعية الشفاعات

ادام الله ايام الديوان مفتوحة ابوابه لمن غلقت دونه الابواب، موصولة اسبابه بمن قطعت به الاسباب، منتجعة مكارمه التي لا يخفر المحل ذمة سحابها اذا اخفر ذمته السحاب، مسوقة مواهبه اذا جرّد الخداع على الظمأ بسيوف السراب .

دعاء آخر

ادام الله سلطان الديوان ولا زال سلطانه نافذا على الاجساد وقلوبها ، وممالكه مشتملة على ما اوجدت عليه خيل الانوار في مطار شروقها الى وكر غروبها ، ومحامده مستوعبة لما جادت به الخواطر من (١٤٩) مستعملها وما ذخرته من غريبها ، وابوابه ميسرة الفتح لذوى الامال التي تنوعت امانيهم في تصنيفها وتبويبها .

دعاء آخر

ادام الله ايام الديوان ولا زال واثقا بجوده كل من يشفع شفاعة حسنة ، واثقا بسلطان فضله كل من لصروف الايام عليه سلطنة ، باذلة يده كل نفيس تشترى به الانفس ثم لا تبتغي الا من الله ثمنه كفيلة ايامنه[1] في دار السلم بانها مسلمة كل نفس مسلمة ، ومؤمنة كل نفس مؤمنة.

دعاء آخر

ادام الله ايام الديوان ولا زال حزب الاسلام به منصورا ، وذكره بالحمد محصورا . والسعود جيشه لنجدة كل (١٥٠) موالف ، والخطوب خليفة له على كل مخالف ، وعامل الرمح له على القلوب كالعامل . وحد المشرفي له كالمشارف ، وايدى اوليائه عاطفة لأعناق اعدائه بما فيها من حروف السيوف العواطف ، والمقبلون عليه رضوا بان يكونوا مع الخلائف والمعرضون عنه رضوا بان يكونوا مع الخوالف .

---

(١) ايامن : ضد الاشائم ، واليمن ضد الشؤم وهي البركة .

دعاء آخر

ادام الله ايام الديوان يسجد لذكره سجدة الشكر، ويضم فيه من الوقار نشوة السكر، والاعداء تضع لسيفه خد الذلة والصعر[1]، قادرا بيده العالية على ان يهدم ما شيد من الكفر، والسائل لديه على يقين من صبح النجح وامن من ذعر العذر.

فصل : متحققا انه يقدم على محقق (١٥١) لظنه اذا علا، مصدق لا مله وان غلا، ويطلع الثناء على طلاع الثنايا ويجلوه على ابن جلا.[2]

فصل : واردا على الباب الذى اذا شاهدته العيون قرت، واذا ذوكرت بقصده الايام فرت، ساريا الى الفناء الذى ما استدعي ضيفا الا جاء مستتبعا ضيفنا، ولا نزله الغريب الا وجد اهلا ووطنا ينسيه اهلا ووطنا، ونزيل ذلك الكرم نزيل آل المهلب[3]، وشائم[4] بارق بشره لا يزعج ناظره الخلب، وطبعه الشريف متخادع لسائله ولم يغلبه مثل مغلب، وطالب ما في يديه مطلوب لتسلم وديعة الكرم فيها فهو الطالب المتطلب، وهو يؤمل من سحاب جوده الغمر، جزيلا يكسو عطفيه في الورق النضر. اذا اعاره نظرة (١٥٢) اعادت عاري حاله كاسيا، وانصرف صرف الزمن عنه خاسيا. جدير به ان يطلع جده ويمضي حده بعد الفلول والافول، ويشرق نوره وتشرف ناره بعد الخمود والخمول. وهو ذلك الخادم الذى اثرى بعد اقلال، وسمن بعد هزال، وولي بعد عزل واعتزال، وهب حظه بعد تهيب وانخذال. هو ذلك الفرع الذى سقاه حتى التف في ورقه، وخطر في سندسه واستبرقه[5] وشافه سراء الفجر بعد

---

(١) الصعر : صعر خده اماله عن النظر الى الناس تهاونا وكبرا.

(٢) طلاع الثنايا وابن جلا : تضمين من :

"انا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى اضع العمامة تعرفوني"

هذا البيت لسحيم بن وثيل الرياحي، ابتدأ به الحجاج بن يوسف خطبته الشهيرة في العراق (العقد الفريد ٥/١٧) (ابن الاثير ٤/٣٣)

(٣) يذكر ابن خلكان ان روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب. كان من الكرماء الاجواد وهذا في ٢/٦٤ ويذكر عن جده المهلب بن ابي صفرة ان له عقب كثير بخراسان يقال لهم المهالبة ويقول فيهم احد شعراء الحماسة :

نزلت على آل المهلب شاتيا ... بعيدا عن الاوطان في الزمن المحل

فما زال بي معروفهم وافتقادهم ... وبرهم حتى حسبتهم اهلي

(ابن خلكان ٤/٤٣٨)

(٤) شائم : الذى يجر الشؤم

(٥) السندس والاستبرق : انظر الآيات التالية في القرآن (الكهف ٢٨/٣١) (الدخان ٤٤/٥٣) (الانسان ٧٦/٢١)

ما كان لا يظفر بازرقه . قد وجبت بالقصد حقوقه ، ورسخت ثرى الاحسان عروقه ، وسود الزمان الذى كان عن عقود اخلاقه عقوقه . وبين جنبيه نفس شاكرة ، وبين فكيه للثناء روضة عاطرة . لو استطاع تحمل كل شارقة (١٥٣) سلاما مرددا ، ولأودع كل ناسمة ثناء مجددا .

فصل : وهو من المكاتبات من شوق يورطه ، وادب يثبطه . ثم اذا اعطى الادب حقه من الاغباب[1] اقتضاه ، الشوق حقه من الكتاب . فلا تعدو كتبه ان تجلو ما في الضمير من وجه وده ، على السمع بلسان حمده . ثم يفوض الشهادة الى القلب الذى يرى غائبهما لا يرى الحاضر ، ويلمح خاطره ما لا يلمح الخاطر ، وما عنده لي يقتضي ما له عندى . واذا كانت القلوب جنودا فان الكتب راياتها المنشورة ، والسطور جيوشها المجرورة ، والحروف اسلحتها المطرورة . فتلك القلوب اذا تعارفت ، بعثت رسلها من الالسنة فتواصفت ، وجنودها من الكتب فتزاحفت . ثم كان (١٥٤) اولاها بالنصر من اشتد خضوعه ، وظهر في ولاية الولاء خشوعه ، فعزيزها المتذلل وشجاعها المتقتل .

٥١

فصل : في ذكر عدو استصلح فلم يقبل الاستصلاح : فابت النملة الا الدبيب ، ومرد الداء على الطبيب ، وكم دعا الى المصالحة والمصلحة داع فلم يجبه لبيب ، ومعرض كل شائب لا يغير لونه الا الزمن الخضيب . هنالك ضاق ذرعه ، وخانه بصره وسمعه ، وانتضلت[2] فيه سهام لا قوة بها لدرعه ، وعلم انه كان يدعو لمن ضره اقرب من نفعه .

فصل : تردد في ريبة الى ان تردى ، وتعدى باغيا وابى فعل البغي الا أن يتعدى ، ولما برز الحق الى الباطل ، (١٥٥) وجاء السيف الذى قتلوا به كاشف وجهه في يمين القاتل . اتقت وجوه المبطلين بظهورهم ، وفرت قبل فرارهم قلوبهم من صدورهم ، كأنما كانوا راحلين على آثارها ، ومهتدين في الضلال بمنارها .

فصل : وردت المشرفة المشنفة ، والعارفة المعرفة ، والنعمة المسعدة المسعفة ،

---

(١) اغب : جاء يوما وتركه آخر .
(٢) انتضلت : من النضال .

فوردت على الاذن الواعية والعين الراعية والنفس المستجيبة والخواطر المستطيبة، واليد التي افعمتها عرفا، والانف الذى فغمته عرفا، وافاضت عليه الملابس التي لا تبلى على الاخلاق، واودعته الكنوز (١٥٦) التي لا تفنى على الانفاق، وناولته عنان العناية الذى لا يعيي على الاطلاق، ورفعت له ناظر الحمد الذى لا يطرق اذا تداول الفاظ الرفع والاطراق، واجنتهم ثمر النهى الذى لا تلتف مناسبه بالغصون ولكنها تلتف بالاوراق. ووهبت له من الآراء الشريفة اشرف هبة، واطلقت من عزمه في الخدمة العالية احدّ ظبة[1]. وانجده بما لا يستقل به وقت اليقين كل جمع وثبة[2]. واذا صادف اللسان الحليم القلب السليم، نفذت اقواله منافذها، واخذت هداياته مآخذها. وبلغت الى الطبع، قبل ان تبلغ الى (١٥٧) السمع، وفرغت الفؤاد فما يستجاب لها ولو كان لا يستجيب لقرع النبع بالنبع. ومن علم منه الناس الترقي رقوا له فعله وقوله، ووصوا له بما يعلي صوله.

٥٢

وكتب من جواب للديوان

ينهي انه ورد من الديوان جواب شريف جليل لطيف، محمله على الكاهل ثقيل وفي اليد خفيف، وفيه للمتقي والمتبوىء ظل وارف وريف، وفيه شهادة ان الله القوى منّ به على هذا الخلق الضعيف. فاضحك سناه سن الدهر، واشبه يومه يوم النصر، وليله ليلة القدر، ومطلعه مطلع الفجر، وموقعه موقع القطر، وحلى نحر المخاطب به بالعيد النحر، والدر لحديثه وتحدث (١٥٨) الناس عن البحر، ونصبه امام الصدر، والجاهل بالله من نبذه وراء الظهر. وتلاه على الايام الموافقة فتلها للجبين[3]، واخذ في التيمن بمعانيه واخذ منها باليمين، واواه الى الانعام العذب منه ولله خطاب جمع له بين الربوة ذات القرار والمعين[4] وقبل منه ضمان النجاة فهو لديه الضمين غير الظنين، لا جرم انه شد عليه يد الضنين. والتقط ما فيه من الجواهر، وامتثل ما فيه من الاوامر، وابقى له ولعقبه ما فيه ذكرى للذاكر، وعمل بما فيه فان الناظر بنور الله وان كان غائبا يرى مالا (١٥٩) يرى الحاضر.

---

(١) ظبة : حد السيف او السنان ونحوهما ج ظبات وظبي .
(٢) ثبة : الجماعة : العصبة من الفرسان ج ثبات وثبون .
(٣) " فلما اسلما وتله للجبين" (سورة الصافات ٣٧/١٠٣)
(٤) " وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين" قرآن ٢٣/٥٠ .

٥٣

جواب

لو جاز ان يسكت عن شكر نعمة وجب شكرها ، ويعرض عن ذكر موهبة طال وعرض ذكرها ، ويعطل جيد صنيعة من قلادة وصف هو بالحقيقة درها . او لو جاز ان يقتنع الشاكر بالنعمة يثنى بلسانها ، ويقتصر على بيان احسانها ، لكان في كتاب الديوان الشريف ما يوجب له سكوته عما يجب عليه ، ويكف لسانه عن شكر ما بسط اليه . وورده منه ما هو قريب العهد غزير العهاد ، كثير الفوائد التي اشترك فيها الظاهر والباطن واليد والفؤاد ، مقتبسة من نفسه الانوار وكذلك (٦٠ ا) الانوار كلها مقتبسة من السواد ، مستعذبة ترددا ته على انها في معارض الاقوال المبتكرة وقد يستهجن الشيء المعاد ، خطيبة الايادى على منابر سطوره بما لا تستقل به خطباء اياد[١] ، ولله الحمد على ما افاد من امان وامتنان عدته بهذا عواد ، وغدته بهذا غواد . ولله هو من كتاب بصرته مراشده ، ونصّرته مقاصده ، ونضرته مواعده ، فهو بين واقع ومتوقع ، وطالع ومتطلع ، ومشرع فيها ومرتع ، ومستقر فيها ومستودع ، وماتع فيها ومستمتع ، ودار من دار الخلافة التي يقطع اهل الخلاف (٦١ ا) بان فضلها لا يقطع . وما هذه الكتب الشريفة الا كتائب ، وما هذه الاحرف فيها الا قواضب ، ولا الاسطر بها الا مواكب ، ولا النقس فيها الا عجاج يسفر عن الصباح اسفار الغياهب ، وما الاقلام بها الا اعلام عباسية الذوائب[٢] . وانها لترده فتورده العذب ، ويقرأها فتقريه الخصب ، ويتلوها فيتلوها السهل بعد الصعب ، ويجربها العضب[٣] ويجربها العصب . وينظرها فتفيده نضرة النعيم ، ويشاورها فاذا هو على صراط الله المستقيم ، وتلقاه فيلقاها بها علم الاخلاص بقلب سليم ، وتطلع في فنائه معالم المهتدى ومراجم (٦٢ ا) الرجيم ، ويتناولها بيده فتخرج بيضاء تذكر بيد الكليم[٤] ، وكذلك يد الكريم ،

---

(١) من خطباء اياد ، قس بن ساعدة بن عمرو الايادى ، وهو ، خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها . اول من قال في كلامه اما بعد ، واول من اتكأ عند خطبته على سيف اوعصا وقد ادركه الرسول قبل النبوة . وهو صاحب الخطبة الشهيرة ايها الناس اسمعوا وعوا . (الاغاني ١٥/١٩٢ دار الثقافة : بيروت وكذلك في البيان والتبيين ١/٢٧) .

(٢) الذوائب : ج ذؤبة وهي من كل شيء اعلاه ، وهي في رأس الانسان الناصية ، اى شعر في مقدم الرأس . وقد استعيرت للعز والشرف ايضا .

(٣) العضب : السيف القاطع .

(٤) " وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . . الخ " والكليم هو النبي موسى (سورة النمل ٢٧/٦٢) (وكذلك في سورة طه ٢٠/٢٢) (والقصص ٢٨/٣٢)

ويطفيء بمائها نيران العدو فلا تلبث ان تعود نار الخليل ابراهيم [1] ، وتغض وتغاض فيما تضمنت فاذا ناديه لها جنة يرم [2] لها السامعون فلا لغو ولا تأثيم [3] ، ويملك بهـا دهره فيجرده سيفا الا انه للطاعة كالسيف في يد الحليم . فكم هفوة تجاوز فيها عن ميعادها فعاد منه الاذى ، ونبوة [4] وردته من مورود منه القذى . فصبر ليكون عند امامه بمزية الصابر ، وسره ان يكون بها اكثر مما يسره ان يكون بمزية الظافر .

٥٤

جواب

ورده من الديوان الشريف كتاب ، تيمن بما تضمن ، وتجمل بما تحمل ، وتأمل منه ما امل ، وتزين منه بما تبين ، واختص بالشرف بما اقتض ، وتلا منه ما تلا لحمده ، ونعم منه ما يعلو المولى على عبده ، والغاه على ملاء من الموالاة من عهده ، وحوى ملكا سليمانيا لا ينبغي لاحد من بعده ، والبسه نسج احسان اصبح به نسيج وحده ، وفسح في حظوات امله وابى له ان يقف عند حده ، وارسل له من المواهب مالا ممسك له من بعده . وقام لمقدمه ، واهتدى بمعلمه ، وتمسك بعصمه ، واستجد والي شكره لقلمه ، ونال اسباب السماء بسلمه [5] ، (١٦٤) وجعله اميرا تسير كتائب الكتب تحت علمه ، واديل من قطوب الخطوب وحروب الكروب بتبسمه . ولقد نصره الله بكتاب امير المؤمنين في مواطن كثيرة ، ولقد انجده احسانه وهو في مصر وفي الشام وفي الجزيرة ، فيذكره فلا يمسه من شيطان طائف ، وحل لديه فلا يشك انه من اخص وظائف اللطائف ، وملك يده رقاب المواهب ولغيره تعار عوارى [6] العوارف . وانس بانواره الرشد ، وسلك في آثاره الجدد ، وجعل له في الناس نورا يمشي به ، وابدله بليالي نعمه

---

(١) "قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم" الانبياء ٢١ / ٦٩

(٢) أرم القوم : سكتوا

(٣) "يتنازعون فيها كاسا لا لغو فيها ولا تأثيم" (سورة الطور ٥٢ / ٢٣)

(٤) نبوة من نبا : البصر تجافى وتباعد . الشيء بعد وتأخر ولم يستقر مكانه . السيف كل وارتد ولم يقطع . السهم عن الهدف

(٥) سبق تخريجه (الشعر لزهير بن ابي سلمى) ص ٥٤

(٦) العارة والعارية والعارية : الاعارة وما تعطيه فيرك على شرطان يعيده اليك . ما يتداوله القوم بينهم ج . عوار وعوارى .

من ايام مشيبه ، وجعله ولما يأوى اليه من الشكر كل بديع المعنى غريبه ، والتقى به الماء على ظمائه (١٦٥) فطورا يرد بعينه من سحابه وطورا يرد بقلبه من قليبه . ورغب الى الله سبحانه وتعالى ان ينهضه بغرائض الطاعة ونوافلها ، وينفعه بذرائع العبودية ووسائلها ، ويحله في امنع حصون الموالاة ومعاقلها . حتى لا يشاء الا ما يشأ له امامه ، ولا يرد على دار السلم الا سلامه .

٥٥

فصل من كتاب شفاعة في حق عالم :

وهذا الفقيه من قلوب المدارس ، وصدور المجالس ، ووجوه المحراب ، والسنة الصواب ، وله في الفتيا الثاقبة والاجوبة الصائبة . قلم ولسان ، ويده فيهما يدان وجنان فير جبان ، وبيان رابح ليس فيه مطل (١٦٦) ولا ليان . ونضال عن الشريعة ، وجدال لا يأتي فيها بالمعاني الخليعة ، وخواطر لا تزال مغيرة وعائدة من كل شبهة بقليبعة[1] ورؤى ورأي لم يعرفهما الربيع وربيعه . ووقار لا تحل له الدنيا حبوة ، وركانة[2] نزاهة ما اعيدت على المطامع بصبوة . وموالاة الامامة العباسية جعلت لسانه من سيوفها ولا فلول ، ومطالع تصانيفه الحمد حقها ولا افول ، ومجالسه من معارك الذب عنها ولا نكول ولا غلول . وله سلف لهم ما سلف وسابقة ، عضدها هذا الفقيه وبخير لاحقة ، وافعال لائق بها الذكر الجميل وهي بافعالهم (١٦٧) لائقة . فقد استخلفوه على تشييد قواعد الولاء الذى لرسوه ، واقاموه يدارس الامة فضلها فما نسوه ولا انسوه . لا جرم انه داع لها سرا ، وداع اليها جهرا ، ومتصرف في نصرها وغيره لا يستطيع صرفا ولا نصرا ، وثابت على صراط الحقيقة في اعتقاد مودتها وغيره من بدل معها كفرا . ولما حضر الى الخادم جعل محاضره لفضائلها مواعيد ودروسا ، واورد منها ما قام الناس لسماعه ولم يستطع سامعها للاجلال جلوسا ، فلولا ان مدامة معانيه تغيد الخلق عقلا لشربت قوالب الفاظها كؤوسا .

٥٦

(١٦٨) فصول

---

(١) لم اجد حتى في لسان العرب الا القليبعة والقلعة وقلهة : وهي مواضع في البادية تنسب اليها السيوف (؟)

(٢) ركن ركانة وركونة : كان وقورا رزينا ثابتا .

ولا زال مكلوءا بالليل والنهار، ومصونا من الحدثان بسورين من بأسه وجوده وهما الماء والنار. وايامه متوالية لا تنقطع عن الاولياء ولا يستطيعون عدّها، وحوادثها على الاعداء تأتيهم بغتة فلا يستطيعون ردها.

فصل: سعد لا يصوح [1] عنه المرتع الاخضر، وامن لا يحزنه الفزع الاكبر، مطاع ينقاد بتصريفه الابيض والاسمر، محبوب القلم حتى لو عاداه السيف لقيل له ان شانيك هو الابتر [2].

فصل: ولا زال جانبه المخشي، وجنابه المغشي، وروضه الموشي، ومذهبه في الايلاف القرشي [3]، (١٦٩) وعشيته للانوار تشبه البكر وبكرته تشبه العشي، وقلمه العلي كسيف علي عليه السلام اذ كان قلم غيره كحربة وحشي [4]. من لم يهتد الى ناره اخطأ القرى ومن لم يبت بداره فما رأى ام القرى [5]، ومن لم يصبح وجهه فما حمد السرى، ومن لم يره وان رآه فردا فما رأى الورى، ومن ظفر بذلك الكرم فما ظفر بشبهه، ومن اخبر عنه فقد صدق وما اخبر عنه كنهه، ومن لم يصب الرأى في وجهه قصده فقد اصابته فتنة انقلب على وجهه.

فصل في ابن الصاحب [6]: (١٧٠) وليس هو ممن يخفى عليه ان البيت الصاحبي بيت رفعه الله على علم واذاق عذابه من اراد فيه بالحاد بظلم، وانه بيت قام للبيت العباسي عمادا، فكان الرؤساء من غيره انطارا وكان الرؤساء منه افرادا. ولا يقرن به نظير وان سما بالتسمية، ولا يشهد لهم قبل ظفره بالمكرمات اللهم الا ان ادعوا الظفر في التكنية.

---

(١) صوحته الريح او الشمس: جففته: صوح البقل يبس.
(٢) الآية "ان شانيك هو الابتر" (الكوثر ١٠٨/٣).
(٣) الآية "لايلاف قريش" (قريش ١٠٦/١).
(٤) هو وحشي بن حرب بن سودان مكة، وعد بالاعتاق ان قتل حمزة عم النبي ـ حمزة بن عبد المطلب ـ فاخذه على غرة في معركة احد وصوب اليه حربته فاثبتها في جسمه.
(٥) ام القرى: مكة.
(٦) مجد الدين ابو الفضل بن الصاحب استاذ دار الخليفة. قتل بامر من الخليفة سنة ٥٨٣ لانه كان متحكما في الدولة ليس للخليفة معه حكم (الكامل في التاريخ لابن الاثير مطبعة الاستقامة في القاهرة ١٨٩/٩).

٥٧

كتاب الى ابن الصاحب

ادام الله سعادات المجلس ولا زالت باقية ثاقبة، مطلوبة منه وهي له طالبة، راضية به ومن شاقها (١٧١) ذهبت عنه مغاضبة، متبرجة بمحاسنها محاسن ايام الكرام الذاهبة، متممة للامال ذات هبة ومنه ذاهبة، واقعة صروف الايام بعدالته واقعة ليس لوقعتها كاذبة[١]. اصدر هذه المكاتبة الى المجلس السامي واحق ما صدرها به شكر اياديه التي ملاءت الصدر بل الدهر، واستوعبت معاني الشكر بل الذكر، وغاصت على الحمد فاخرجت منه ما يسخو به البحر من الدر، وتناهت في ايجاب الود فهو له رق بجوده الحر، واحلت مذاقه مذاق حكم الدهر فهو لا يمر بمر (١٧٢)، وانارت مطالع ايامه فوجوهها الغر لا تغر فما هي الا الايادي التي الايادي[٢] بشكرها ضيق باع الخطابة، والسحباني كالباقلي[٣] في وصفها كلاهما لا سهم لسهمه في الاصابة. ووراء هذا الشكر من وده ما شاء العهد الصحيح، وما اقتضاه الشراء الربيح، فانه ادام الله نعمته له في تألف القلوب نيقة[٤] وفي سلوك الطرق اليها طريقة، وفي الاخذ بالوثائق منها آية وثيقة، وفي سيادة الخليقة ما اعاهد عليه سؤدد الخليقة، فلا جرم ان القلوب بوده مثمرة والاقلام بحمده وريقة، وان الخواطر ان قيل انها في وده مفرقة قيل وفي (١٧٣) فضله فريقة. وليس بتقليب اللسان وصوفه، ولا بتقليب البيان وروفه، ولكن بما املت يده القلوب، وبما انست ما للدهر من الذنوب، وبما ابرزت حقائق الفضل المحجوب، وبما ردت على المجد من معناه المسلوب، وبما وليت به الامر من حزامة تقوى اذا ضعف الطالب والمطلوب[٥]، وبما ساست في الدولة من همة اتعبت المشتبهين وما مسها من لغوب[٦].

---

(١) الاية " ليس لوقعتها كاذبة" (الواقعة ٥٦/٢)

(٢) الايادي : الخطيب الجاهلي المشهور — قس بن ساعدة الايادي — (سبقت ترجمته) (ص ٩٦)

(٣) سبق تفسير ذلك، وهو نسبة الى سحبان وباقل. الاول فصيح والثاني عيي (ص ١٠٠)

(٤) اسم من التنوق والتنوق في الملبس التجود فيه.

(٥) تضمين من الاية : " يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذى تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب" (الحج ٢٢/٧٣)

(٦) لغب لغوبا : تعب واعيا اشد الاعياء.

٥٨

ومن كتاب اليــه

ادام الله نعمة المجلس في ملك يستمر به مريره ، ويستقر به ولد يه سريره ، ود هــر يحل به عقده ويحلو به مريره ، (١٧٤) وتنتظم اموره ويسر اهله مروره ، وتد بير يضرب علـــى سرير الملك سوره ، وعزم يفك ماسوره ، بتد بير منه يقنع ميسوره ، وسلطان يسطو بجيش يـــروع الاعداء جاره ومجروره ، ولا زال ظله من حوادث الدهر جارا ، وجوده لفلك الامال مـدارا ، وبشره لسرى الهمم السرية منارا ، وبره غير مناهض بعزائم الشكر ولا مبارى ، وفعله فـــي المكرمات غير مجارى بقدرة قادر غير الله ولا مجارى . ولا زالت السبل تضم ابناءها الـــى جنابه ، والامصار تلفظ نزاعها الى بابه ، والامال ترمي ابصارها الى سحابه ، وحوادث الايام تطبع على (١٧٥) سكة كتابه ، والدهر يصرف وليه وعدوه على الضدين من عذبه وعذابه . ولا زالت جواهر الخير بيديه تنتظم ، ووجوه الامال الى وجهــه الكريم تبتسم ، وخواطـر الحمد على جوده واناته تنقسم ، وحوادث الدهر اذا اعضل داؤها فيــه تنحسر وتنحســم ، ووجوه الامــال الفقل بأثار يده[1] البيضاء تتسم ، وكل ملتزم له التعظيم لتعظيم مجلسه يلتزم . ولا زال بينه وبين الخطوب حجاب مستور ، وفي يده من حسن دفاع الله كتــاب منشور ، وحديث المكرمات يسند عن معجزة يديه فاذا هو حديث مأثور ، وجده ينهض في ازمــات الزمان وكل جد (١٧٦) عثور به يثور ، ومادحه معرضا لثواب الصدق وغـــيره بقول الزور مأزور[2] ولا زال جنابه للمؤمل خصيبا مريعا ، وجانبه من صروف الايام حصينــا منيعا ، ورأيه في غياهب المشكلات فجرا صديعا[3] ، وعدوه لا يناهض مجده الآخر لسيوف الاقدار صريعا سريعا .

٥٩

فصل في استدعاء عسكر من بغداد

---

(١) الثرد (بالفتح) متشقق الشفتين وهنا كناية عن بيض الاماني التي تستمد جمالهــا من ابتسامته .

(٢) الازر : القوة . ازر بالشيء احاط به .

(٣) الصديع : النصف من الشيء المشقوق نصفين : والصديع ايضا المصدوع .

وما كان معناه في الاستمداد من دار الخلافة العزيزة، والاستنهاض من مقامات الامامة الحريزة الا ان كل تقليد ينتقد باقلام الكتاب، وكل نص يعتقد فيه انه من السنة الحجاب، والكتاب الذى ما فيه ريب، والامر الذى يؤمن الناس به (١٧٧) بظهر الغيب، استقلال الراية كاشفة القناع، والعساكر طويلة الباع. فتزيل مقطع التأويل النصوص، وتعلم ان المستنصر بها المستبصر فيها بنصرها الخاص مخصوص. والا فان عسكر اميرالمؤمنين الذى يخدم به لا يمد جزره، ولا يقدر حذره. ولا ينزل بساحة قوم الا استنزلها، ولا يخطب به خطوة من نصر الا استجزلها، ولا يزاول ارض عدو الا زيلها وزلزلها، ولا تنزل به آيات نصر عزم الامامة الا والنصر قد رتبها والبأس قد رتلها. وانما يريد ان يأتي بهم على اعين الناس، ويكفيهم مؤونة ايدى الباس. ليعلم انه بيد الخلافة يصل (١٧٨) ويصول، وبلسانها يستقل ويقول، وفي سلاحه وجنته من رايه يجوب ويجول، ومسألة فريضة ولائه صحيحة السهام لا تحجب ولا تعول، ويد طاعته وثيقة اساس النية لا تغل [1] ولا تغول [2]. واولى مكبوت بذلك من يتعاطى قصد دار الامامة وطرقها [3]، وكان يدعي قبل الخادم ان دارها داره ثم لما وجد هذا الخادم نسي ذلك المدعي طريقها. وخروج العساكر في بيكارها، ومرونها على اسفارها. تذكار لما هي له تاركة، وتدريب على الطريقة الحربية التي هي لها سالكة.

٦٠

ومن كتاب آخر

(١٧٩) اصفى النعم موردا، واكرمها مولدا، ما كان من الخلافة مورده، ومن رواتها العزيزة مورده. وليس مثل كلام الله في الكتب، ولا مثل سيف الله في القضب. وما من الكتب الا له مقام معلوم، وما من القضب الا له من اثره كتاب مرقوم. وورد على

---

(١) تغل : تخون

(٢) تغول : من غال اى اهلك واخذه من حيث لا يدرى. وغالته الخمر اى شربها حتى ذهبت بعقله وصحة بدنه.

(٣) طروقها : الاتيان ليلا.

الخادم كتاب وحده الحمد فليس له شريك، وبهرت له معجزة آمن بها الجاحد الأُفيك. وسطعت له انوار انوار[1] انطوى ثوب السماء المجزع[2] لبهجتها، ورحبت له آثار محجتها، وخضعت خواطر الخلاف اللد[3] لحجتها. وتناثرت درر معادنه فمدت القلوب الاسماع لالتقاطها، وتناسقت غرر محاسنه فوسعت (١٨٠) جوانب العقول لارتباطها. وهكث على الولاء فؤاده، واهدى أمنا واذكى عزما فالاول اوجب رقاده والآخر نفى رقاده. واقتضاه التشمير بما يشمر الاعداء عن جوانب الاسلام، وهتف به فلبته تلبية يستيقظ بها وينام الانام، واغنته اعلام سطور منشورة فعلام تنشر له الاعلام.

٦١

فصل في خروج امرأة تشفع

كذبتهم الاحلام واضغاثها، وصدقتهم اذ حدثتهم الايام واحداثها. فما شعروا حتى شقتنا العجاجة، وصدعنا سورهم صدع الزجاجة. فبدا اليقين لناظر (١٨١) المكابر الخاطر، واخرجت المخدرات الخوادر. فما اتسع المجال، لان نلقى وجوه النساء بسيوف الرجال، ولا افتى الحجى ان لا تشفع في قتال الجهل قواعد الحجال. وما يرد حملة كمحمل، ولا حجب باب حرب مفتوح كحجاب حرة مقفل. ولم ير كموقف عطل فيه من عليه جر الجيوش من عليه جر الذيول[4]، ولا كيوم تخفرت فيه من وجوه ذوات الخفر عقود الحقود من النصول. فجاءت للحريم عصبية، اطفأت كل نار غضبية، وكانت ضيافة سليلة مملكة عجمية، ما شاءت من نخوة نفس عربية.

---

(١) مكررة في الاصل، الكلمتان مشكولتان بتنوين الرفع، ولعلها انوار انوار.
(٢) المجزّع: ما فيه سواد وبياض.
(٣) اللد: الخصم الشديد الخصومة.
(٤) تضمين من بيت شعر لعمر بن ابي ربيعة:

كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

الديوان: دار صادر، دار بيروت ص ٣٣٨ سنة ١٩٦١.

٦٢

فصل في ذكر اطفال اصحاب ديار بكر

ولا غنى بالرعية الذين امير المؤمنين عنهم مسؤول ، وحسن نظره لتفريج كرباتهم مأمول ، وفضل صيانته لبعيدهم وقريبهم مبذول ، ان يكلف امرهم من يصح منه التكليف ، ويعرفهم واليا يفهم عن امير المؤمنين التعريف ، ويناله فيهم وقت الامكان والا قطعت في احوال الرعية سيوف التسويف ، وان تهنا ايام امير المؤمنين من ان تكون فيها روعة اشراط[1] الساعة وامارات القيامة، فقد ورد ان منها امارات الصبيان واحكام النسوان ، واذا تؤمل ما في بقاء الامر من على اطراحه ، وما يؤدي اليه الفساد (١٨٣) ان لم يعاجل بصلاحه. كان منه ان الرعية يقعون في خسراني الدنيا والآخرة ، وضررى العاجلة فالاجلة ، اما العاجلة فما يتطرق على احوالهم واموالهم وآمالهم، واما الآجلة فان مطالبتهم تستند الى ذمة فارغة من التعبد وهي ذمة نسوان المتوفين واطفالهم. ولأن يرجع المظلوم الى ذمة من الظالم يطالبها ، ولان يدفع المخاصم الى معرفة المخصوم يخاطبها ،اجبر لحقه ،وافسح لطرقه. واخلص لذمة امامه، واقوم لحجته يوم مقامه ، واطهر لعطفى صحيفته وايامه. واجدر ان يشغله بخصمه عن استخصامه .

٦٣

فصل في شاه ارمن[2] لما خرن في نصرة (١٨٤) المواصلة

هذا رجل قد ذهب اطيباه ، وخانه ثقتاه ،ان تناول خانته يداه ، او نهض خانته رجلاه ،او نظر كذبته عيناه ،او سمع ادت اليه سراب السمع اذناه. لا يستقل من ذنوبه ، بين دنه وكوبه ، ولا يفضل عن يومه نوم ويقظة مثلها فضلة من وقته لجلوسه وركوبه. ولا يباشر نهيا ولا امرا ، ولا يخاطب زيدا ولاعمرا ،ولا يذكر حشرا ولا نشرا ، ولا يفهم عن الله نذارة

---

(١) اشراط: جمع شرط. العلامة ، اول الشيء .

(٢) هو شاه ارمن ناصر الدين محمد بن ابراهيم بن سكمان القبطي صاحب خلاط. توفي سنة ٥٨١. وكان قد اجتمع مع عز الدين صاحب الموصل على محاربة صلاح الدين سنة ٥٧٨ (ابن الاثير ١٦٨/٩) وفي ابن خلدون ان البهلوان ابن ايلدكز صاحب اذربيجان زوجه ابنته طمعا في ملك خلاط، فلما توفي شاه ارمن منع صلاح الدين ،البهلوان من تنفيذ خطته. (ابن خلدون ١٧٦/٥) .

ولا بشرى ، ولا تعرف له في الاسلام بطشة صغرى ولا كبرى ، ولا يخرج عن كسر بيته وليس من (١٨٥) العدل ان يلزم الوالي كسرا . قد فوض الامور الى نسوة ملكت الرعية واخرجتها عن الفلاح بشهادة نبيها صلى الله عليه وسلم . فانه يقول : "لم يفلح قوم تملكهم امرأة [١]" يتصرفن فيها وهو عنها منصرف ، ويعف بشغله لا بعدله والايدى للاحوال تنتسف . ولو لم يكن في هذه الحركة من الفوائد الجزيلة ، والعوائد العظيمة الجليلة . والملامح الدقيقة ، والملاحظات الرقيقة . الا ان يمحص الله خلفاء خليفته ان يكونوا ظالمين ، وان يلقى الله خلفاؤه على تقليدهم نادمين . وانما كان العذر ان احكام الايدى غلبت ، وان انوار الابصار غربت . والان قد بسط (١٨٦) الله يد الخلافة واعلاها ، وارحب ساحة صدرها واخلاها ، وكشف غمة الاستبداد عليها وجلاها ، واوضح انوار امرها ونهيها وجلاها . فان قلد نفذ تقليد المقلد ، وان شاء عزل عن الولاية وان شاء خلد ، لا يأتي الدهر بنائبة توجب خلاف نائبه ، ولا يخرج سلطان عن الخضوع له على تقاذف النائ به . وحق على خادم قد استصلحته الامامة لنفسها ، وانتظرت نصرة يومه قياسا على امسها . ان يضرب من عصاها بمن اطاعها ، ومن رفض حقها بمن فرض اتباعها . الى ان لا تنازع الخلافة فيما به وقعت ، كما لا (١٨٧) تنازع النبوة فيما له شرعت . وان تشرق الحنيفية بيضاء ، وتشرف الراية سوداء ، وتشرف الساحة خضراء ، وتغص دون لجة الحديد زرقاء ، وتطفأ نار الفتن حمراء .

فصل : فما الظن بقوم افعالهم الآثام ، واموالهم الحرام ، وضمانهم الحكام ، وضمانهم اموال الايتام ، وخصمهم فيه المسلمون والشاهد عليهم الاسلام . ما فزعوا في افناء خصمهم الا الى ظلمهم ، وفي دفع عدوهم الا الى عتوهم . نصبوا للظلم ديوانا ، ورفعوا لماله ميزانا . وولغوا في الدماء باقلام الكتاب ، واجروا على الظهور سياط العذاب ، وخرقوا ما بينهم وبين غضب الله من الحجاب . ففي كل بيت رنة وعويل ، (١٨٨) وعلى كل حانوت ميزان ووكيل . وفي كل دار من البلاء ضجة ، وفي كل عين من البكاء لجة . جوزا عم القاطن والجائز ، وعدل بين المستتر والبارز . فمن هرب اخذ متاعه ، ومن امتنع اهلكه امتناعه . ومن اجاب

---

(١) في الحديث : "ما افلح قوم يلي امرهم امرأة" (حم ، ٥ : ٥٠)

اجتيح فيما يؤدى ، واستيح الى ان يكدى ، فقد صارت سيوف ظلمه السنة رعاياه ، وصارت القواضي عليه قضاياه، والسهام الصوائب له الخواطئ اليه خطاياه . وان امرءا استهدف لسهام الاسحار ، وبرز لسيوف الاقدار ، واستعدى السنة الاشرار ، وقلوب الاخيار . فكفى منه خصمه سعيه ، ورمي من الله قبل رميه . ومقتول وسيف قاتله في قرابه ، (١٨٩) ومأسور ويد آسره بين ثيابه . ومحبوس على الصراط اذا تعرفت الاقدام من اطلاقها وحبسها ، ومحصور بشهادة نفسه عليه اذا جاءت كل امة تجادل عن نفسها[١] . فقد خرج الى خيامنا ، وأمن بمقامنا . وشرده الذعر ، ومسه الضر . واستحلس[٢] المخافة ، واستيأس من الرافة . وفارق زغب قطاه ، وخالطه من الظالم رعب سطاه ، ونزع عن الاهل والوطن وان كانا قد ما قد ارتبطاه . من تاجر قد اخرج عن سلعته ، وجندى قد احوج الى نجعته[٣] . ومن العجائب ان يجمع لهم بين الظلمين ، وان يجمع على نفسه في حال واحدة بين الخصمين . وما هذه الا مقدمات نتائجها الخذلان ، وطرقات مناهجها الحرمان . وضال والله (١٩٠) قد هدى النجدين[٤] ، وخروج والكتاب قد وقف على الحدين . ومبارزة لله وهو القادر على مراده ، وعناد له وهو القاهر فوق عباده .

٦٤

فصل الى ابن الصاحب

ادام الله سعادات المجلس ووقاها من الغير ، واصفاها من الكدر ، وحماها بجند من القدر ، وبتوفيق من النظر ، وبجليل من الخبر ، وبجميل من الاثر ، وبخلال صدق فيها الذى شكر ، وبهت الذى كفر ، وبعزم به صفا صوب النصر وضفا ثوب الظفر . وبجد لولا مس الجلمود ، لفارق الجمود ، او دعا بالماء لانفجر من الحجر . ورد كتابه الكريم الذى

---

(١) تضمين من الاية : " يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون" (سورة النحل ١٦/ ١١١)

(٢) استحلس : اتخذها حلسة ، والحلسة قطعة قماش توضع تحت سرج البعير .

استحلسه الخوف : لم يفارقه

(٣) طلب الكلاء في موضعه .

(٤) من القرآن ، الاية " وهديناه النجدين " ٩٠ / ١٠

يفديه كل كتاب، ويمليه كل صواب، ويثوب به كل ثواب، (١٩١) ويقصر كل جواب خاطر ان هم عنه بتعاطي جواب، ويلاقي منه ما لاقى الحساب من العطاء الحساب، وتفيض اسطره سردا موضونا[1] على الاحساب، كما تفيض يد مصدره كرما فضفاضا يقلص به ذيل السحاب السحاب، وتعيد الانوار الى الابصار والبصائر بعد ما توارت بالحجاب. ووقف منه على الدر الا انه كلام، والكلام الا انه غمام، والغمام الا انه ضرام، والضرام الا انه برد وسلام، والسلام الا انه من دار السلام. واسند النيابة عنه بحيث لا يستطيع احد المناب، وقيامه في امره قيام الماجور المثاب، وتثقيفه احكام الدهر المذنب الى ان اضمر المتاب. وابانته لمقاصده (١٩٢) وربما كانت تحت قناعها، وفضحه لمقاصد اعدائه وربما كانت تحت قناعها. ومن اعان المجاهد فهو واياه شريكان في ذخائر الاجر، وسواهب النصر. وان كان احدهما يلقي السيوف بوجهه المعفر، ويقيم هامته تحت السيف مقام المغفر[2]. والاخر لا تعلق بعطفه العجاجة، ولا ينزع السيف من دم انزعاج الزجاجة. وهذا السؤال الوارد النجاح، والمغنم البارد القراح. ومن فتح عليه باب الخير فليدم الاستفتاح، ومن انار له مقصده فليدم الاستصباح. فان الحسن من الحديث يروى ولا يزوى وينشر ثم لا يطوى، ويجر الاجر ويجريه، ويهني (١٩٣) البر ويمريه، ويطرى الذكر ويطريه. ويبقى وتفنى الايام، ويعمر اذا خربت بيوت الكتب من عمارة الاقلام.

فصل : واعلى كلمته ولا زالت تطيعها الايام، كما يطيعها الانام، ويباح بولائها دار السلام، كما يحمى بلوائها دار السلام[2] وتتصرف على حكمها الاقدار، كما تتصرف في مدحها الافكار. وتستمد من سواد قلوب اعدائها اقلام اعلامها، وتستبد بالامر يحزبه على رغم احكام ايامها. ولا زال لسان الدهر بفضلها خطيبا، وحد السيف لداء اعدائها طبيبا، والنصر لاعدائها قعدة والفتح جنيبا والقدر رقيبا، على مخالفيها يمنع كلام (١٩٤) ارادته حبيبا تجرى لمرادها الادوار، وتقتبس من نورها الانوار، وتعقد على ولائها الاسرار، وتقلق

---

(١) الوضين : البطان العريض المنسوج من سيور او شعر، وقيل ان الوضين للهودج بمنزلة الحزام للسرج.

(٢) تضمين من بيت الشعر :

يلقى السيوف بصدره وبنحره ويقيم هامته مقام المغفر

(٢) السلام : لعلها : الاسلام

عيون اغماده في نصرة الحق ولا ينام الفرار[1] فيها الا الغرار[2] ، وتبرد بماء الحديد الضلوع التي هي بلظى النفاق حرار، فلهم في هذه الدار نار الحقود ولهم في تلك الدار عـــذاب النار. ولا زالت دولته ضافية ذيل البقاء، بطيئة خطوة الفناء،عريضة ساحة الفناء بعيدة ما بين الصباح والمساء، مستقرة استقرار الارض عائدة بالفضل عود السماء. ونصرها بجند من الرعب لا يهزم، ودعمها بركن من النصر لا يهدم، وايدها بسيف من الهيبة لا يثلم، (١٩٥) وامدها بحجة من الحق لا تخصم، واكد حقها بعروة من الزمان لا تفصـــم ، واغرق عدوها بطوفان بلاء لا يجار منه ولا يعصم . وتولاها بما يتولى بها الصالحـــين ، وحازلها في كل صفقة صفقة الرابحين، وروح بها خواطر العافين واتعب بها خواطـــر المادحيـن ، وعاجل اعداءه بما في اول " النحل"[3] ولا ...[4] فما في آخر "صاد"[5] مـــن انتظار علم النبأ بعد حين ،وجمع لهم من خسارة الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين[6].

فصل : وكان اهل ماردين[7] قد انضووا الى بعض المارد ين فسلبهم انوار الرأى الصائب، وكان قد خطف (١٩٦) الخطفة على علم ان سيتبعه الشهاب الثاقب. فاسلمهم وقت الحقيقة، وعقد لهم غير الوثيقة ومناهم بما هو عنه قصير الباع، ضيق الذرع والذراع . وامتدت يده الى خزائنهم فنثل كنائنها ، ونفض ضنائنها . وعمد الى زوجة قطب الديـن اخت ابن عمه نور الدين[8] واخرجها وهي في عدة من متوفاها[9] وتسبب الى ان ســباهـــا ونقلها من خدرها ، واخرجها مأخوذة آخذة لحذرها . وفعل فيها ما يأباه اهل الاباء، وكفل الولد بزعمه كفالة ما فيها لا رقة الامهات ولا حزم الاباء . وكان راسل المشار اليــه

---

(١) حد السيف .

(٢) النوم الخفيف .

(٣) اول سورة " النحل" الآية " اني آمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون"

(٤) لم تمكن قراءتها .

(٥) آخر سورة " صاد" الآية " ولا تعلمن نباه بعد حيـن"

(٦) ومن الناس من يعبد الله على حرف .... خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخســران المبين " الحج ١١/٢٢ .

(٧) قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين . (معجم البلدان: ياقوت)

(٨) قطب الدين : سبقت ترجمته ص ١٨ (الذي سبق ذكره ص ٥ (فيما بعد : ص ٨٦)
ونور الدين : لعله نور الدين زنكي المشهور. / ~~سبقت ترجمته~~

(٩) فترة معينة من الزمن لا يحق للزوجة التي يتوفى عنها زوجها ، الزواج الا بعد انقضائها.

مبتدئا بالمفاتحة في المصالحة، ومشيرا الى ما عده (١٩٧) فيها من المياسرة والمسامحة. فاجابه الى ما يصلح احوال الايتام، ويجمع لهم ولعسكرهم بين الترفيه والاستخدام. وعرف ان هذه الاعمال كان قد افتتحها في حركته الاولى، وولهيها مقلدا بيد الخلافة الطولى، وانه ردها على قطب الدين رحمه الله مشترطا ان يكون في خدمته عسكرها، وان يصرح باسمه منبرها، وانه الان يطلب البلاد ما كان اعاده وللنعمة ان تسترد، وما لا شركة فيه لغيره فله ان يشارك او ان يستبد. فلم يكن من شاه ارمن[١] استجابة ولا اجابة، ولا رسالة ولا كتابة. الا انه شرع مع بلاد الروم وبلاد العجم في تخويفهم من الخادم (١٩٨) ان تسرى اليهم بزعمه غوائله، وخوفهم ان تجاورهم منازله. وكل من هؤلاء المارقين قد اذهبوا في هذه الحياة الدنيا طيباتهم، وذهبوا في غمرات شهواتهم، متى علموا ان قائما لله بقسط، او للناس بشرط، او للعدل ببسط، او للمظالم والضرائب بوضع وحط. فهو لهم ضد لانه يعمل بغير علمهم، ويسلك بالخلق في غير سبلهم، ويـزيدهم باحسانه الى الناس استذماما، ويخافون منه اذا قارب عساكرهم استضافة لها واستضماما. فان الجندية عندهم كالفلاحة كلتاهمـا للاستفادة لا للافادة، وللنقص لا للزيادة. (١٩٩) لا يدفع للجندى قليل الا اعتوره كثير المطالب، ولا يقطع له منشور الا بعين كل حملته الفاعين وحاجب. وعدى يتربص بهم الدوائر، ويخطب عليهم اذا هاجت البوائر[٢]. فلم يحفل الخادم بما جرى بينهم مـن هذه الجوارى المكتومة فانها الجوارى الخنس[٣]، ولم يستطع لغيبتـه ان يعرض الحذر الاملس.

٦٥

فصل في اباء الخليفـة :

اكلت الدنيا الا آثارهم، وجحد القدم الا اخبارهم، وذم الابتلاء الا اسرارهم، واخفى الدجى الا انوارهم، وانكر السرى الا نهارهم، وتقضت الاوطار الا في طاعة الله فما قضوا منها اوطارهم، ولوى الذم الى كل دار الا انه (٢٠٠) ما رأى ولا ابصر قط دارهم كـفـلوا

---

(١) سبقت ترجمته ص ٧٠

(٢) لعلها جمع بائر، وهي من بار بورا : الكساد والارض التي لم تزرع (لسان العرب مادة بور)

(٣) الخنس : الكواكب كلها، او السيارات منها فقط او بعضها وقيل هي زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد.

الامة مبدأ ومعادا ، وسقوا الحجيج ماء وزادا ، واهتدوا الى الضيف في كل ليلة من جمادى ، وصرعوا الاموال فخلفوها على آثار الندى جمرا ورمادا . والبيت بيت الله وهم سكانه ، والدين دين الله وبهم سلطانه ، والحق حق الله ومنهم اعوانه . والظل للكعبة حباهم التي عقدها الحلم وظباهم التي جردها العلم . والرى لزمزم[1] وبهم سقاتها الاولون في السوابق ، وهم ولاتها الاولون دون الخلائق . لا تدر حلوبتها الا اذا جابها مسحهم[2] (٢٠١) وابساسهم[3] ، ولا تلفظ نطفها وتبسط ارسيتها الا اذا ابعثها ايلافهم وايناسهم ، ومنى من منازل شرفهم فايامها مواسمهم ولياليها اعراسهم ، والنهار وضاتهم والليل عصمهم والاسحار انفاسهم .

فصل : لا يخالف خلافتهم ولا يتهم ولا يتهم الا ظنين ، ما هو على الغيب بامين ، والا خالع له الشيطان خادع . والا مفارق للجماعة يموت جاهليا ، ويحتج باقليا[4] ، ولا يجد من دون اولياء الله خادع فيهم وليا .

فصل : لهم الدست المنيع جانبه ، والمنبر المهيب راكبه ، والملك المردود خاطبه ، والسيف الكثير صفحه (٢٠٢) الخشن جانبه ، والحزم الذى املاه للمدبر الله فلم تستشر في واقع تجاربه .

فصل : لهم الجمعة والجماعة ، والولاية والطاعة ، والشفعة في الامامة والشفاعة ، وايديهم طرق البر والبراعة ، واسماعهم طرق الالسنة اذا اخذت على طريق الضراعة . وبسطهم بافواه الملوك منقوشة ، ولاذلال خدود الجبابرة مفروشة . والخطوات محسوبة على سماطها والمكارم محسوسة .

٦٦

فصول في استحثاث العساكر

---

(١) زمزم : بئر في مكة قرب الكعبة .
(٢) المسح : ضرع الناقة .
(٣) ابساس : الناقة التي يدعوها الرجل للحلب متلطفا بها .
(٤) نسبة الى "باقل" المشهور بالعي كما سبق . (ص ١٠) (وص ٦٦)

كان كتابنا تقدم الى المجلس بما نحن عليه من توقع انفساخ الهدنة وانقضائها ، وتوفية المدة التي لا عذر في الاخلال بوفائها . وان الغزاة مما نظمأ اليها ونلتاح ، ونهش اليه ونرتاح (٢٠٣) وان العساكر المنصورة المصرية وغيرها مضروب منها الموعد ، منتظر منها المورد . مطلة بلا ريب هي والربيع ، طالعة في ليل الانتظار هي والصديع. وانه قد سير اليها من جهته الكتاب المسمع وفارقها الداعي السميع، وهذه غزاة نصرتها مرجوة بالله تعالى لا بالجموع، وبيعتها ملتزمة بهذا الشروع. والعدو خذله الله قد اشعره الله خوفا اسعره ، وقلل منه في اعين بني الاسلام ما كثره ، وقد بدت بابادته شواهد قدرة الذى قدره. وهي دعوة الله لا عذر في التصامم عنها ، ولا في ترك التصميم على الاجابة اليها (٢٠٤) والمجلس السامي من عدد الاسلام وذخائره ، وصدوره المفزوع اليه في موارد امره ومصادره . ولا غنى عن عزمة منه ونجدة ، وانفاذ عدة ذوى عدة . ولا غنى له عن ان يكون له في هذا الصنع ضيع ، وفي هذه الدرجة الرفيعة شيء رفيع . وان يؤنس حسناته بحسنة كل الحسنات المشفوعة لها تبع، ومصالحة كل المصالحات المشروعة بعدها شرع . لا سيما وقد تقدم بالانجاد وعد ، وقد تقدم الوعد عقد ، وقد تقدم العقد ود ، وقد تقدم الود رشد . ففي سبيل الله هذه المودات المؤداة الى الله حقوقها ، وهذه المعاهدات المتعهدات (٢٠٥) بما تثمر به فروعها وتنصب به عروقها . وما قعد عنها وحوشي الا من كره الله انبعاثه فثبطه ، واطلع على نيته فأضل عمله واحبطه . فانها المغنم بل المغنمان في الدارين التي نحن بها والتي نحن اليها ، والنعمة بل النعمتان في الحالين التي وردناها والتي به نحوم عليها .

فصل : في المعنى : والامير ينهض وعسكره سراعا عجالا ، وخفافا وثقالا ، وبنيات تقتضي افعالا ، وعزمات تلتظي اشتعالا ، وهمات يستحق الرجال ان تسمى بها رجالا . وحسبة يحسبها الله ويحتسب له باجرها ، ويسره يوم يرى الله عمله ورسوله صلى الله (٢٠٦) عليه وسلم ما قدم من ذخرها . فان الغزاة قد امكنت ، والفريضة قد تعينت ، والربيع والرماح قد تقلدا الحقين ، وتكفلا لنا الرزقين . فالرماح عليها الرزق من فوقنا بباعها الوسيع نستنزله ، والربيع عليه الرزق من تحت ارجلنا بخلقه الكريم يتكفله . فالمؤن محمولة ، والمنن

من الله مأمولة . وبلاد العدو لا عاصم لاهلها الا جدرها ومعاقلها ، واذا نادتها السنة الافماد بكلام صليلها صمت مسامعها وسمعت مقاتلها .

فصل في المعنى : والمعهود من الامير المسارعة الى هذه الدعوة ، والاعداد لها ما استطاع من قوة . والنهوض (٢٠٧) اذا تقاعدت هم المستنهضين ، والتصريح بالعزم اذا ترددت عزائم المعارضين والمعرضين . فانه ابر من كان يقطر[١] جموع الاسلام الى الكفر ، ويجعل العدو لسعة الظفر في اضيق من الظفر . ما لقي الله الا وثوبه بدمائهم خضيب ، ووجهه بضربات سيوفهم خصيب . كم له من مقام ما للعدو عليه مقام ، وكم جمعته واياهم دار تحيتهم منه فيها طعان فعرفته منهم دار ثمينة فيها من الله سلام . والجياد على اعراقها[٢] تجرى ، والسيوف بجواهرها تفرى . وقد بعد عهدنا بالغزاة ، وارتحنا الى ان نطلب الضالين بالهداة . وبعثنا كل داع الى كل قطر ، واستنجدنا كل ذى اسلام على كل ذى كفر . (٢٠٨) فقد علم ان هذه الشرذمة الملعونة حجة الله على من حبط عمله بالقعود عنهم ، وحجـــة عند الله على من شكر سعيه ببذل الجهد منهم . ولعل مدة الابتلاء ، قد وصلت الى مدة الانجلاء . فما ذلك على الله العزيز بعزيز ، ولا الامر البعيد من احسانه البديع ببعيد . انما امره واحدة ، وانما اياته بذلك واعدة . ولنا الجهد ان نبذله ، وفي الله الامل وعلى كرمه ان يتقبله . واذا تساعدت ضاربة السواعد ، وتوافت مضروبة المواعد ، فما هم ولله الحمد الا السراب المروع والنهب الموزع . والباطل جاءه الحق فجعله هباء فازهقه[٣] ، والزبد دهمه السيل فاطاره جفاء وبدده ومزقه[٤] . فالاعمار ظل نبادر قلوصه[٥] ، وسحاب نحاذر نكوصه[٦] ، والسعيد من تزود فانه في (٢٠٩) طريق سميت دارا ، ومن ان تزود تزيد وقد ترى هنالك الرتب صغارا وكبارا .

فصل في المعنى : وقد عرف الامير ما عزمنا عليه من الغزوة في هذه السنة والدخول

---

(١) يقطر : يسوق
(٢) الاعراق : جمع عرق وهي اصالة النسب . (لسان العرب : مادة عرق)
(٣) تضمين من الاية : " وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا " (سورة الاسراء ١٧ / ٨١)
(٤) تضمين من الاية : " انزل من السماء ماء . . . فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض . . . " (سورة الرعد ١٣ / ١٧)
(٥) (٦) قلوصه : انقباضه ونكوصه : انقطاعه .

الى بلاد الكفار، والمنازلة لهم في عقر الدار. واننا كنا على التوقع لانقضاء مدة الهدنة، وعلى الانتظار لوفاء العهد والخروج من العهدة. وانا دعونا العساكر المنصورة من كل الجهات للجهاد، وقدمنا الاشعار بذلك لتقدم الاستعداد وتوفير الاعداد. فلا يرد وارد الا مزاح العلة مزيحها، مراح القوة مريحها. يجد نفسه اذا طلبها، ويركب المشقة فيستظهر عليها اذا ركبها. فان الغازى ان لم يكف المؤونة لم يكفها، وان لم تصف له الموارد لم يصفها. والامير ممن (٢١٠) يخاطب في هذا الخطب، ويدعى خلقه السهل في الامر الصعب. فمكانه من الجهاد لا يسده الا محضره، ولا يكفيه الا عسكره. ورايته يستطلى منها مساطير[١] الفتح، وآراؤه يقرأ منها تباشير النجح. وهو بمحل الاقتداء، وبمكان الاقتفاء. فاذا نهض نهض المتقاعد، واذا قرب قرب المتباعد. واذا لبى تكاثرت الاصوات، واذا نقل خطواته انفسحت الخطوات. وله اجره واجر غيره. وله ثواب سيره وثواب من اتبعه في سيره. وخير افعال البر ما كان متعديا، واحسن ما كان الغازى كالحاج يرد سيفه محرما ولسانه ملبيا[٢]. ونحن على توقع مقدمه، وترقب علمه. ليشتد به الازر، ويأنس به النصر. وتقوم الحجة على كل قاعد، وتجب النهضة (٢١١) على كل واعد. ويقضى فرض الله الذى يتوجه به الخطاب اليه، ويجاهد في سبيل الله بيديه، فيقدم منه ما يجده بين يديه.

فصل في المعنى : ما هي الا عزمة لها يتبع النصر، الى عدو منه يشبع النسر، في نصرة دين يسر نشر راياته يوم النشر، لموعد حق شرح الله به السمع وشرح به الصدر. واذا توافت عساكر الاسلام ومقدموه، وولاة سلطانه ومخولوه ومؤملوه، واطلع على جميع نياتهم، من اجمع على مناداتهم. وقاتلوا بمصاحفهم الصلبان، وبسيوفهم الاوثان، وبرز الى الكفر الايمان. فما هم الا القرع[٣] صار به العاصف، والوشل[٤] سار به الجارف. والهشيم ذرته الاعاصير، والصريم[٥] محته التباشير. والحق زحم الباطل بمنكبه فسحقه، والسيف (٢١٢) دنا الى الهام بمضربه ففلقه. وما هي الا وقفة ولا وقفة بعدها للنصر، وعزمة ولا عزمة عندها للكفر، وصبر وان التأييد يقتل شفاعة الصبر.

فصل في المعنى : واذا حضر الامير في هذا المشهد كان واحده الذى تشير

---

(١) مساطير : سطور
(٢) محرما وملبيا : بمعنى الاحرام والتلبية
(٣) القرع : الارض الجرداء
(٤) الوشل : الماء القليل يتحلب من جبل او صخرة يقطر منه قليلا قليلا . (لسان العرب، وشل)
(٥) الصريم : الليل او القطعة منه .

اليه راكبا الاصابع،وتعقد عليه قاعدا المجامع. واعتضد الاسلام واهله برايه ورايته ، وسررنا نحن برواثه ورؤيته . ووريت به الزناد ،وكان الفرد الذى بعده ترتب الاعداد ، وكان الصدر الذى يميل الى رأيه كل فؤاد . ورجونا برايه النجح ،واستفتحنا به وبرايته آية الفتح . فان هذه السنة قد توفرت العزائم فيها على الغزاة ،وكوتب بالاجتماع لها كافة الامراء والولاة . وشرح كرمه الصدر (٢١٣) لغرضه ،وهانت نفقات الانفس والاموال التي هي من فضله فاذا بذلت فيه عدها من قرضه . والعدو خذله الله قد امكنت منه المضارب، واتسعت في قصده المذاهب،وهان امره فهيئة القاصد له هيئة المسالم وان كان على عزمة المحارب. ومما اشعر بقرب دمارهم ،وبشر بإباحة ذمارهم. ما توالى في عقود هدنهم من فدرات ظاهرة ،وكرات فاجرة ،واخائذ قصرت ايديهم عن اخذها في مواقف الحرب المعقودة ،وطالت الى اخذها في قواعد السلم المعقودة[1] ومن انتقل امره من وثبة الافراس ، الى قعدة الاختلاس. ومن عزة المحاربة ،الى ذلة المواربة . ومن ان يأخذ بيده ضاربا ، الى ان يأخذ (٢١٤) بلسانه كاذبا فقد صرح بعجزه ،وقد تعرض لان يصيبه الله بعذابه ورجزه .

٦٧

فصول في ذكر الخلافة : الخلافة العباسية التي اتبع الله في الطاعة اسم ولي امرها اسمه واسم نبيه صلوات الله عليه ،وفرض من حقها ما يقصر كل حق من حقوق الخلق عنه ويشير حق الله به واليه . وعلى الامة نصرها واجب،وعند الله حزبها غالب،ولا كفران لسعي القائمين بها والله له كاتب ،ولهم العاقبة المكفولة في ضمان التقوى وللتقوى العواقب.

فصل : امير المؤمنين فرع شجرة الرسالة ،وشاهر الشرف الجلي الجلالة . وقائم القوم الذين ولاء عترتهم البرزخ بين الجنة والنار ،وودهم وبغضهم الفارق بين المؤمنين والكفار،وعلى اعدائهم (٢٢٥) عقوبة الدوائر ولاوليائهم عقبى الدار. فهم حجج الله على الورى ،ووجوههم صبح لليالي السرى ،ولهم الايدى التي يتناول فخرها الثريا وينال

(١) المعقودة : امامها في الهامش : ولعلها المشهودة

برها اهل الثرى ،والاسباب والعـرى مغصومة يوم القيامة الا ما لهم من الاسباب والعرى على ابن عمهم صلوات الله عليه انزل التنزيل ،والى ابيهم فوض التأويل ،والى بيوتهم اختلف بين الله وبين مصباحها جبريل وميكائيل ،وبه بشرت التوراة والانجيل ،فهو الذى يجد ونه مكتوبا عند هم في التوراة والانجيل . داراهم في (٢١٦) الدارين منسوبتان الى السلام، وبسيوفهم يعاتب الدهر وبحاملها من ايديهم يستعتب الغمام . وعلينا لهم الطاعـة ، وعليهم الشفاعة ،واليوم لهم الجاه واين جاههم اليوم من جاههم يوم تقوم الساعة. سيف لا يجرده نصرهم سيف يغمد مجرده وهو سيف البغي ،وطريق لا يؤدى الى اداء حقـهم طريق تهوى بسالكها الى النار وهي طريق الغي . وما اختار الله ظلاله في الارض الا منهم ،ولا قائما بتقويم اود الايام الا ولاتهم او الولاة (٢١٧) عنهم. ولهم المفاخر الحسنى ، وحسبهم من مجدها الاسنى ،ليلة سدد الله مرامي ساريهم فكان منه كقاب قوسين او ادنى . ينتهي كل شرف اذا ذكر بانتهاء شرفهم الى سدرة المنتهى ،ويهوى نجم كل مجد اذا زكى الله صاحبهم واقسم على انه ما ضل ولا غوى بالنجم اذا هوى[١] . وهم القبس من السراج المنير ،وهم الخلف من البشير والنذير . خلفهم بين ظهراني امته وقرنهم بالكتاب،وبوأ اقدامهم واطئه من المنبر والمحراب.

٦٨

وكتب تعزية للامير شهاب الدين سالم صاحب[٢] توفي بدمشق سنة ٥٨٤ (٢١٨)

لا اوحش الله من المجلس السامي العمادى وكتب سلامته ،واحسن صحابته ،وحفظ جملته ،وحاط حوزته ،ورفع درجته . رسم ان نكتب كتابا الى الامير شهاب الدين سالم ابن امير المدينة يعزى بوالده ويذكر ما قدره الله في امره والوصية بان يقوم في حفـظ حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام والده ،وان يباشر الولاية على ما كان قدره له . ومن حق الامير جمال الدين جماز اخيه وبني عمه واهله ان تتفق كلمتهم ،وان يمتثلوا

(١) " والنجم اذا هوى" ،"ما ضل صاحبكم وما غوى" " فكان قاب قوسين او ادنى " " عند سدرة المنتهى " (هذه الايات كلها كما سبق وذكرنا في مكان اخر في سورة النجم (٥٣ : ١–١٠)

(٢) فراغ بمقدار كلمة

~~(٣)~~

ما كان شيخ العترة النبوية اشار بلـه واليه فان قضيته لدينا مضاة ،ووصيته عندنا موفاة .
وقد اختار هذا الشريف (٢١٩) الامير شهاب الدين وهو عليم بمن اختار ،ومات جوارنا
ولا بد من رعاية حق الجار . والاسباب التي يرعى لها حقه ويتعين بها فرضه ليست بمتحدة
بل متعددة ،ولا بقليلة بل جليلة . فانه رحمة الله عليه وعلى اهل بيته صحبنا في الجهاد
واحسن الصحبة ،وختم له باشرف الحالات من المؤاساة في الغزاة وشاهدنا منه ما يوجب
اذا فاتنا ما كان في الاسس من قضاء حقوقه المقضية ،ورعاية اسبابه المرعية . ان نستدرك
ذلك في ولده ،وان نأخذ على بعد المدى بيده ،وان نقمع الحظرات والنظرات من قلـوب
وعيون اعدائه وحسده . فالحذر (٢٢٠) كل الحذر من ان تمتد يد او لسان ،او
يطمح ناظر وجفن او سيف من اجفان ،او ان يقول فلان انا اولى من فلان . فيتهدف
منا لما يصيبه ،ويصيبه ما يريبه ،ويكون خصمه حسبه والله حسيبه . واحق البقاع بان تطهر
من الفتن بقعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير خلق الله نازلها ،واحق القلوب بان
تطهر من الضغن قلوب رجال اشرف عباد الله ناسلها . ومهما اتى الناس الحسن متنفلين[1] ،
وجب ان يأتوه مفترضين ،ومهما كان الخلق على الاحسن متفلتين وجب ان يكونوا عنها
معرضين . فالنسب زائد في شرف من وليه بمثله ،والا كان ناقصا (٢٢١) من الناس من
يعزى الى مثله . فليعلم من كان ينتظر منية هذا الشريف انه ما عدم الا شخصه ،وانه قد
اهل للولاية من نختصه بها كما كان يختصه . والعافية نعمة تدوم على شاكرها ،وبيوت
العلاء كبيوت البناء لا يتم السكن فيها لغير عامرها .

٦٩

فصول في الاستنجاد

ولم تزل ملوك الاطراف ،واخلاف الكرام الاسلاف ،يدعون لمثلها فيشمرون ،ويستقدمون
ولا يستأخرون ،ولا يفقد في كل محضر نصر منهم جند محضرون ،والمجلس احد ملوك هذا
الدهر ،والعالمين فيه بالامر . والقادرين (٢٢٢) على انجاد الاسلام واصراخه ،
والتابعين لاسلافه السادة واشياخه . فانه يحيي بذلك آثارهم المحبوبة ،وآثارهم المكتوبة .

---

(١) متنفلين : من النافلة ،وهي ما زاد عن الاصل ،وهي العطية (لسان العرب :
مادة نفل)

وهؤلاء الملاعين في قلوبهم مرض من فتح القدس فزادهم الله مرضا ، وقد تجردنا اسهما ونرجو ان يجعلها الله فرضا والبلاد قد ضاقت ، بل الاجسام بارواحهم قد ضاقت ، والكلمة قد حقت والسيئة بهم قد حاقت . وانبترت عصمتهم من الارض فلم تكن لهم فراشا ، وخلعهم الليل فلم يكن لهم لباسا ، وحرمهم النهار فلم يكن لهم معاشا . وما يخرج الينا والله اعلم اشد شوكة من الشوكة التي قططناها ، ولا ترفع صلبان اقوى (٢٢٣) من اصلاب الصلبان التي حطمناها وحططناها . فانما يخرج اضغاث فليضمه حبل المستوقد ، وبغاث يقطع حله بازى المتصيد . ولا غنى ان تأخذه في الله الهزة ، التي تأخذ بها الاسلام العزة . فيوفر العدد المرسل من العساكر ، من يجود عليها بموجود الذخائر . ويبعثها سارة له يوم بعثه ، ويحثها في اول الوقت مستغنيا عن حثه ، ويحوز بها الاجر الذى هو حقه من نفسه بسعيه وعن اهله بارثه . والمودة اوجبت تنبيهه على هذه الفرصة ، ومشاطرته في الاجر ليأخذ منه باوفر الحصة . والا فما تكاثر جمع الكافر بجمعنا ، (٢٢٤) ولا نثق به في حولنا ولا صنعنا . بل نعلم ان الله على كل شيء قدير ، وانه قد كتب بيد فريق الجنة مصارع فريق السعير . وانه يظهرنا عليهم وان كان بعضهم لبعض ظهيرا[١] ، وانه لو كان للمسلمين معهم يوم فانه يكون يوما على الكافرين عسيرا . وانما اردنا ان لا تخلو صحائف الحسنات من اسمه ، وان تكون راحة الاسلام من راحته وهمته من مهمه .

٧٦

فصل الى مظفر الدين[٢] في المعنى

وقد كان المجلس حضر في هذه السنة فانفق وفرا ، وكنز اجرا . وجاهد في الله حق جهاده ، واستشهد عند ربه السنة عباده . ونكس الصليب بعلمه ، وطهر الارض من رجس الكافر بدمه . وشاد (٢٢٥) ما بنت اوائله ، وزاده فضلة زادت بها فضائله ،

---

(١) تضمين من الاية : " قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله . . . . وما له منهم من ظهير " ٢٢/٣٤

(٢) ابو سعيد كوكبرى بن ابي الحسن علي بن بكتكين بن محمد الملقب بالملك المعظم مظفر الدين صاحب اربل . والده زين الدين المعروف بكجك صاحب اربل . وقد تولى موضع ابيه بعد وفاة هذا الاخير وعمره ١٤ سنة . وكان اتابكه مجاهد الدين قايماز . ولد مظفر الدين سنة ٥٤٩ وتوفي ٦٣٠ وله قصص شهيرة في فعل الخيرات وخاصة الصدقة وقد بنى دور الايتام والارامل والملاقيط . (وفيات الاعيان تحقيق محمد عبد الحميد ٣/٢٧٠ مكتبة النهضة المصرية

وتحدث بمكاثره اهل السلام الى ملك قلوبهم وسائله ،واشتغل الناس بدنياهم وعزمه بالاخرة شاغله . واشهده الله فتوحات كانت فرته صباحها ،وكانت نجدته سلاحها . وانصرفوا وما انصرف ذكره ،ومضى وامضى له عند الله اجره ،وصبر فتكشف عن حسن العواقب صبره . وهذا العدو قد تناعقت رعاته ،وتداعت دعاته . وتجهز حاشدا ،وتأهب واردا . وخرج عن دياره بطرا ،وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا [١] . واحتفل في البر والبحر ، واستظهر بالمركب والظهر ،وراسل القسطنطينية (٢٢٦) وكتب في منتصف شهر رمضان ، عرفه الله من ميامنه ما يعمر به بيوت السعادات ،ويملأ به دسوت العبادات ،وينيف لسؤدده على السادات . ان شاء الله تعالى .

٧١

ومن كتاب

وصل كتاب المجلس ادام الله مجده على العراق ومصر والشام ،وانجد اعلام الاسلام باقلامه التي هي سيدة الاقلام ،وعافى قلبه من الهموم ورأيه من الفتور وجسمه من الاسقام . فطلع على ايمن مطلع ،واوردني وارده اعذب مشرع ،وسر مكانيه مني من عين وقلب وزاد السمع والفاظه الكريمة احق من الفاظ حبيب بان يقال فيها " توكل بالضمير وتشرب" [٢] (٢٢٧) ففي الفاظ حبيب فير الحبيب مما يغص به ،وفي الفاظ سيدنا الحبيب الذى كل اديب على افتتانه به وتعصبه .

فصل : وما كنت قصرت في مبدأ القضية في التماس عدل السلطان في ان لا يخص بالتهمة مع اشتراك الايدى بقبضة ،والمحبوس لا بأس ان يفرج عنه فما وراءه ،ما يفك به نفسه . والتهمة

---

(١) الاية : " وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى جاؤا فتحت ابوابها . . ." سورة الزمرة ٧١/٣٩

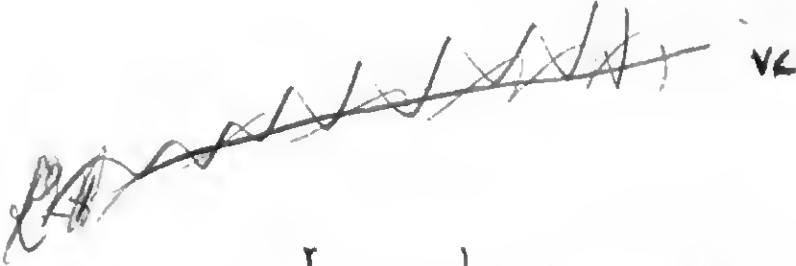
(٢) يشير الى بيت ابي تمام :

يستنبط الروح اللطيف نسيمها ارجا وتؤكل بالضمير وتشرب

وهو من بائيته في مدح الحسن بن وهب. (الديوان : ١٣٦/١ تحقيق محمد عبده عزام ،١٩٥١)



فير محققة وغلط العفو خير من صواب العقوبة . وما ذهب في الدنيا وجد في الاخرة . ورأيه اعلى .



٧٢

كتاب آخر

تأخر كتب المجلس السامي كمل الله شفاءه ، وصرف لاواءه [١] وسر ببرئه [٢] اولياءه ، واتم عليه نعماءه ، وحمل عنه (٢٢٨) اعباءه ، وحرس من الغير حوباءه [٣] ، مما يدل على بقية من المرض مثلها في القلوب او اكثر ، ومما يكد ظنون المشفقين فانها العذاب الادنى وما هي ببعيد من العذاب الاكبر . وردت الكتب بانه ادام الله عافيته تصرف معانى ، وتجلى بدرا وافق انتصافا ، وحضر فكان كل اليه مضافا . فاخرت تزكية هذه الدعوى لتأخر كتابه عني ، فانه لا احسبه يستأثر بعافية ولا يشاركني فيها ولا يبشرني بها ولا يفك بها قلبي من اسره ولا يرفه بذكرها خواطر صبره ، فان كان ذلك قد فلظ قلبه وقسا ولما استبطأ خاطرى هزة عطفه ، قلت عسى ولم اقل عسا [٤] . فلا يبخل علينا بلفظه ، ان (٢٢٩) كان الدهر قد بخل علينا بلحظه . والا فهذا فراق بعد فراق ، وغضب ثمرته قد منعت الاوراق التي ما اودعها شيئا الا وراق . ورايه اعلى ان شاء الله تعالى

٧٣

كتاب

اصدرت هذه الاحرف الى مجلس سيدنا حرس الله محاسنه ، واطاب نفسه ونفسه ، ووفاه من الفضل الذى هو اهله اجله وانفسه ، ووقاه صرف الزمان وصرف عنه ابؤسه . ووردت

---

(١) اللاءواء : الشدة

(٢) في الاصل : ببرؤه

(٣) الغير : مصائب الزمان . والحوباء النفس

(٤) عسا يعسو : كبر وولى .

منه مكاتبة تلقتني في الطريق فحيتني بتحية قربه ، وكانت اكرم رسول وصل الى قلبي من قلبه .

فصل : ولا تقل للمضطر كيف، ولا بد (٢٣٠) ان يقدم على العلم بأن الوقت سيف، وهو بالجملة لي ولد ولسيدنا ضيف ، ويروقه ان هذه الشتوة سحابة صيف، فارجو ان لا تسفر عما تسفر عنه سحابة الصيف. وسيدنا يأخذ بيده ، ويدله على مقصده ، فعنايته معولي ومعوله ، ومذ وكلته الى عناية فقد وكلته الى من لا يكله ان شاء الله تعالى .

مـ٧

وكتب عن السلطان القاضي شرف الدين ابن عصرون[١] عند وفاة نور الدين محمود بن زنكي[٢] رحمه الله .

لو كاتبنا حضرة سيدنا ادام الله الامتاع ببقائه . واحسن الدفاع عن حوبائه ، ولا اعدم الاسلام ما لبسه من انواره (٢٣١) واضوائه ، واحيا العلم واهله بما يجود هم مـــن

---

(١) القاضي شرف الدين بن عصرون : هو قاضي القضاة فقيه الشام شرف الدين ابو سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن ابي عصرون التميمي الحديثي ثم الموصلي احد الاعلام، ومولده ٤٩٢ ، تفقه بالموصل ، ثم رحل الى بغداد ، ودخل الى واسط ايضا وتفقه بها ورجع الى الموصل بعلوم جمة . ولي القضاء لصلاح الدين ٥٧٣ وله مصنفات كثيرة منها "الانتصار" في اربعة مجلدات ، "وصفوة المذهب في نهاية اختصار نهاية المطلب" في سبعة مجلدات. توفي وله من العمر ٩٣ سنة (سنة ٥٨٥) (شذرات الذهب ٤/٢٨٣)

(٢) نور الدين الملك العادل ابو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر تملك حلب بعد ابيه ثم اخذ دمشق فملكها عشرين سنة. ولد سنة ٥١١ وكان اجل ملوك زمانه واعدلهم وادينهم واكثرهم جهادا . افتتح من بلاد الروم عدة حصون ومن بلاد الفرنج ما يزيد على خمسين حصنا . توفي سنة ٥٦٩ وقام بعده بالملك ولده الصالح اسماعيل . وبعد ذلك كان صلاح الدين بن ايوب . . (شذرات الذهب ٤/٢٢٨)

صوب صوابه وفيض انوائه. بقدر ما نفترضه من تعظيمه واكباره، ونعرفه من فضله الـذى يشق على الغابرين فضلا عن فضلاء الحاضرين شق غباره. لملأنا الطرقات رسلا، ولم نجعل له غير قراءتها شغلا، ولكننا نستشهد من قلبه شاهدا عدلا، ونضمر فيه حبا من تمام لذلك انا لا نسمع فيه عذلا، ونبذل له ودا لا تدخل لولا عليه ولا الا. ونصف من حسناته التي يتعطر بها المسك والكافور، وتتعطر بها السهول والوعور، ويقول فيها المؤمن ما قال الكفور، ولا يستطيع جحدها وهل (٢٣٢) يستطيع ظلام الليل اخفاء النور، ولا يتعاطى السابق مجاراتها الا اضرب ساليا او ضرب بينها وبينه بسور، ولا تزال آثارها من المحبوب المؤثر واخبارها من المنقول الماثور. وقد علم ما كان من نقوذ قضاء الله السابق، وتمام وعده الصادق، في الملك العادل نور الدين [1] لقاه الله ذخائر تقواه، وسقاه من كأس الرضوان فرواه. فاى مصاب حدثت الحوادث انفسها بمثله، وهدة جبل يخال ان الجبال سيرت[2] يوم حمله. فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قول من عز عزاؤه، ورجا ان يكون بحسب مصابه جزاؤه. ولما سمعنا بالخبر الذى تكاد تخر له الصمم (٢٣٣) وعمنا من الجزع بل خصنا ما عم الامم، وفقدنا روضة النعيم فلا جرم، انا ودعناها من الدموع بديم دم. قمنا بالحق الواجب، واظهرنا الاسف الغالب، ولبسنا شعار الحزن المسود الغياهب، وأسلنا الدمع الصادق لا الكاذب. وعقدنا محافل شرعية لاقامة الذكر واهدائه، وامرنا بالصلاة عليه رحمة الله في كل مصر على قربه ونأيه. واوعزنا بان تقام الخطبة على رسمها لولده، وأن تؤدى في محفل الاسلام ومشهده، رغبة ان يستسن الناس بسنتنا في الوفاء، ويتشبهوا بنا في ابداء واخفاء الصفاء. ولتجتمع كلمة المسلمين وتنتظم، وتنقطع (٢٣٤) اسباب الخلاف وتنحسم. وخرجنا بعساكر الاسلام المسلمة، وجموع الملة المعلمة، وخيل الله المسومة. وقد اجمعت على الغزو غزاتها، وريعت باخبارها عداتها، فوردنا كتاب اجك والي بانياس يذكر ان الفرنج نزلوا عليها محاصرين، وضايقوها مزاحفين ومفاورين، ومراوحين للقتال ومباكرين، وان الدمشقيين قد شغلوا عن اجابة الصريخ، واعجز مناديهم ان يجد عندهم سمع المصيخ [3]. فاستنفرنا للمحاماة عن الثغر،

---

(١) هو نور الدين محمود زنكي التي مرت ترجمته. ص٨٦

(٢) ولو ان قرآنا سيرت به الجبال وقطعت به الارض او كلم به الموتى ... لا يخلف الميعاد" (سورة الرعد ١٣/٣١).

(٣) المصيخ: من ارهف اذنه وسمعه.

والمراماة التي يقترن بها النصر . فرحلنا اربع مراحل عن الديار المصرية فبينا نحن للطريق راكبون، وللهوينا ناكبون [١]، اذ ورد الخبر (٢٣٥) بصلح بين الفرنج وبين الد مشقيين انبرم وانتسج [٢] واتسج [٣] وان العدو لهما واحد، والصديق صديق للفريقين مساعد. وان مالا من مال الله الذى اعد لمغنم الطاعة، ولمصلحة الجماعة. صرف في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي هذه الامة، وكان مذخورا لتكشف به الغمة، فصار عونا على الغمة. وان اسارى من طبريه وفرسانا كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دفعوا في القطيعة، وجعلوا الى السلم السبب والذريعة. فلما وردنا هذا الخبر، وقفنا به بين الورد والصدر. ان اتممنا ظن بنا غير ما نريد، وان قعدنا فالعدو مرتقبه (٢٣٦) ثغور الاسلام التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وان فرقنا العساكر المجموعة لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا ان سيرنا الى حضرة الامير شمس الدين ابي الحسن علي [٤] والى اخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الامساك، وانه امر ربما عجز فيه عن الاستدراك. وان العدو طالب لا يعقل، وجاد لا ينكل. فان كان الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير، لا سيما ونحن نغار لله ونغير، ونقصد للمسلمين ما يجتمع لهم به صلاح الرأى وصواب التدبير. فان المسلمين قد اشرقوا على اشد الخطر، وعاد الاسلام كما بدأ بلا وطن ولا وطر. ولله فيجيب هو شاهده، وامر (٢٣٧) هو بالغه، ويوم تنقطع بعده الايام، ومقام بين يديه يتقضى فيه الخصام. وسيدنا اولى من جرد لسانه الذى تغمد له السيوف وتجرد، وتحصص [٥] بحسن التحريض على اجتماع الكلمة وتفرد، وقام في سبيل الله قيام من يقسط عادية من تعدى وتمرد. وقد اخذ الله عليه وعلى امثاله الوارثين لانبيائه، المترجمين عن اغراض اصفيائه. ليبيننه للناس ولا يكتمونه،

---

(١) نكب ينكب نكبا : عدل . وللهوينا ناكبون اى تخلينا عن السير البطيء . اسرعنا

(٢) نسج نسجا الثوب : حاكه . الكلام : لخصه . نسجت الريح التراب او الماء : ضربته فانتسجت له طرائق كالحبك او الزرد . انتسج : مطاوع نسج .

(٣) اتسج : اتسق

(٤) هو شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم . سلم الى صلاح الدين دمشق فكافأه صلاح الدين بتسليمه اياه بعلبك بعد ان افتتحها . غير ان شمس الدوله محمد بن ايوب طلبها منه وهو اخ صلاح الدين والح عليه لانه كان قد تربى ونشأ فيها . توفي سنة ٥٨٣ في عرفات وهو اكبر الامراء الصلاحية . (ابن الاثير ٩/ ١٤٥ و ١٨٨)

(٥) حصص : ظهر وبان

وليصدعن بالحق الذى يعلمونه. فليوف لله عهده ، وليقل ما عنده ، وليبذل في الجهاد المضاعف جهده . وكتب من المنزل بفاقوس[1] ، والفجر قد هم ان يشق ثوب الصباح ، لولا ان الثريا تعرضت تعرض (٢٣٨) اثناء الوشاح[2] .

٧٥

كتاب آخر الى العماد

وصل كتابا المجلس السامي العمادى لا زال ذكره بالحمد موصولا ، وخاطره بالتقوى مأهولا ، وقلمه سيفا على الايام مسلولا ، وكتابه يدا من اياديه لا زال فيها مسؤلا ، الاول في ورق اصفر احب الي من الاصفر[3] الى البخيل ، وآخر في ازرق امضى من الازرق[4] في قتال هي الدخيل . فذكرتهما بذلك لا شوقا الى التشبيه ولكن تعريفا بحليتهما ، واشارة الى شيتهما ، وذكر اربعة كتب سيرها كاتبه بوصولها وفيها القصائد ، وقد عرفته ان المخدوم بها المسؤول في الاصغاء (٢٣٩) الى انشادها صار يستشهد بها مكررا ، ويستعيدها حضرا وسفرا ، وانه ، خلد الله سلطانه ، جعلها من اوراد الاسفار والابكار ، المقتضة في البيكار ، وصارت تجلى سربة في خلوة الليل وتتلى في جلوة النهار . وقد بلغ بها المراد فان السلطان اعز الله نصره اغنى في دفع الطالبين للاقطاع ، والضاربين عليها بسيوف الاطماع . وكتب سيدنا تدل على قصور اجوبتي ومهما شككت فيه فلا اشك بان الاجوبة مني اكثر من الكتب الي فانا ان كتب اجبت في الحال ، وان ابطأ تضورت من المطال . فلهذا تزيد كتبي على عدد كتبه وان كانت تقصر عن مباراة فضله . (٢٤٠) وهو مشغول بكتب ذوات مناظرات ، ومذاكرات فقهية هي المذاكرات . فلا خلت الدنيا منه ضاربا في كل فضل بقدح قامر[5] وعامرا كل مجلس علم بفهم فامر ، ومؤذنا في المعالي

---

(١) فاقوس : بلدة من مركز الصوالح في مصر (الشرقية)

(٢) تضمين من بيت امرىء القيس :

اذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح المفصّل

(ص ١٤ الديوان ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر)

(٣) الاصفر : الذهب

(٤) الازرق : صفة للسيف

(٥) قدح : سهم الميسر قامر : رابح

بالحج [1] الى كعبة خاطره فتأتي من الفلاه على كل ضامر. واما الاخبار التي انعم بايرادها، فلا عدمت همته لمقتضيها ومعادها . وكتبه مصونة من كل لمح ،مطوى عنها كل كشح [2] . وان شوركت في بعض اخبارها فلمصلحة لا يمكن الافضاء بها الا اليه . وكانت في هذه السنة واقعة سماوية شديدة الموقع،سارية الى كل موضع. مؤذنة (٢٤١) بعقاب من الله سبحانه ضجت اصوات الى الله تعالى في رفعه ،وحسب كل خلق انها الواقعة ساعة وقعت.وكانت عارض [3] حصا حصب البلاد ورجمها الى ان صار المائتون رجاما ،واجتحفت السيول الزروع الى ان ذهبت عليها غثاء [4] وحطاما . وهلك فيها الزرع ومزرعه ،واستهلك بها كثيرا من الاقوات والفواكه . والله المستعان .

٧٦

وكتب اليه

ما عهدت المجلس السامي لا تغير منه معهود ،ولا اخلف فيه مقصود ،ولا اخل به جد [5] مسعود ،ولا حط من قلمه لواء معقود . يعين دهرا على صاحب ،ولا (٢٤٢) يقعد عزما عن واجب،ولا يرضي ان يعتلق منه بذؤابة برق خالب [6] ،ولا ان يصحب في وفائه امل خائب. وكل هذا قد دخل تحت انقطاع مكاتباته ،واغباب [7] عوائد افتقاداته . في هـذا الاوان الذى قاطعني فيه حتى الصحة،واظلم في عيني حتى الصبحة. وانكرت كثيرا مما كنت اعرفه مني ومن الناس،وتناوبت علي النوائب من مجنس ومطبق [8] فلا تسل عن سواد في القلب وغن بياض في الراس. وعرض لي نقرس اقعدني ضعفا واقامني الما ،فاشبه عدمي مع

---

(١) تضمين من القرآن : " واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى .. (٢٢/٢٧)
(٢) الكشح : العداوة
(٣) عارض : سحاب
(٤) الغثاء : الضعف ،اى اضعفتها
(٥) الجد : الحظ
(٦) البرق الخلب : البرق الكاذب الذى لا يعقبه مطر
(٧) غب يغب عن القوم : اتاهم يوما وترك يوما
(٨) المعنى مأخوذ من الجناس والطباق ،اى ان النوائب كانت متجانسة ومطبقة .

الالم وجودا واشبه وجودى مع العقود عدما (٢٤٣) فيا لك من عاجز لا يبتغي في الارض نفقا ولا يرتقي في السماء سلما[1] . اذا اردت الجد في المشي خالفتني رجل تلعب، واذا اشتهيت ان تمشي اشتهت ان تركب، فلا ايا بلاءى افلت من الالام واشراكها ، ولا اعلمتني هذه الرجل الى اليوم انها بالحياة لحراكها . واشكر الله على كل حال ، من عاطل وحال[2] . وعلى كل مقتضي، من مكروه ومرضي . وهبني خطوات فالى اين ، ولو اطلقت طرفي فما تقع عيني على عين ، فلولا الهم ما رايت نفسي في الدهر ثاني اثنين[3] . ولكنني منه في جحفل ، وكم صدر مملوء ولسان مقفل . وحضرني الموفق ابو الحسن[4] وفقه الله واحسن اليه ، وساءني (٢٤٤) بفراقه لنفسي ، وسرني لقاؤه لسيدنا وهو ولد فلا يحمل على العقوق ، ومذكر ما له ولاهله على ذمة وفائه من الحقوق ، وذريته الضعاف لا ينسى برّها ، والكبد الرطبة لا بأس ان يبرد حرها . واثر ابي الحسن حسن في الاقطاع فانه مجتهد محتاط ، بعيد عن التفريط قريب من الافراط . والنائب الجلد معدوم لا يوجد الا النائب المستوجب للجلد . فيشد سيدنا به يده فانه لا يعدم الكافي ما وجده . مما اسره به ان نسخة وردت من الخريدة العمادية[5] فتغاير الناس عليها واستبقوا اليها (٢٤٥) ، واشتراها العضد بن مؤيد الدولة رحمه الله بثمانية عشر دينارا مصرية . والشهرة حظ من حظوظ التصانيف وقد نفقت هذه الخريدة لا بحظ لا يعلل ، لكن بصواب لا يجهل. وسمعت انه ورد الى دمشق كتاب منه رسائل الباخرزى[6] ، فان امكن شراؤه ، والا فليمكن نسخه . وقد تقدم في اول الخطاب ، من استبطاء الكتب ما يغني من اعادته في آخر الكتاب . ان رأى ان يؤنس السمع بخبره ، اذا حرمت الايام الحظ من نظره ، فليفعل منعما[7] ان شاء الله تعالى .

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٤ ، ٦٢)
(٢) العاطل من النساء من لم يكن عليها حلي ، وعكسها حال .
(٣) تضمين من القرآن : اذا اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما الغار . (٩/٤٠)
(٤) الموفق ابو الحسن : سبقت ترجمته
(٥) الخريدة : اسم كتاب للعماد الاصفهاني .
(٦) هو ابو الحسن علي بن ابي الحسن بن علي بن ابي الطيب الباخرزى . اشتغل بالفقه في ايام شبابه على مذهب الامام الشافعي وله ديوان كبير ، وله " دمية القصر وعصرة اهل العصر " قتل بباخرز وهي ناحية من نواحي نيسابور سنة ٤٤٨ (ابن خلكان ٣/٦٦ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية)
(٧) في الاصل سمعا، وهو تصحيف ظاهر .

٧٧

وكتب الى العادل [١] والفرنج على حصار تبنين [٢] وتاريخه تاسع صفر — اربع وتسعين وخمسمائة. ويذكر وصول الملك العزيز [٣] من مصر.

(٢٤٦) ثبت الله وطأة مولانا الملك العادل وارسى بها الارض المضطربة، واخمد بها الخطوب المضطرمة، وخذل بها الفئة الكافرة، واعز بها الفئة المسلمة، وحصن بها ثغور الاسلام الى ان تكون المستلئمة. واستجاب فيه ما يدعوه كل داع من الاولياء، وحقق له ما يرجوه كل راج من الاصفياء. وكتب له اجر الصابر، واثابه عنه بشكره وكتب له اجر الشاكر، وعمر به مساجد الله فلولاه لكانت مظلمة المحاريب ساكتة المنابر، وليهنه الايمان بعمارة تلك البيوت فانما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر [٤]. وليست العمارة التشييد والتأسيس، (٢٤٧) ولكن التطهير والتقديس، وحماية الاذان بها من ان تخرسه النواقيس. ورد على المملوك كتاب مولانا وتاريخه ثاني وعشر محرم في سابع صفر مسفرا عن استمراره على جهاده ورباطه، ونظره للمسلمين واحتياطه. واستنفاره لولاة اطرافه، واستنهاضه لحماة اكنافه. وان العدو ان اجتمع الجماعة اليه فأمره غير معجز، وان مطل بالمناجزة فخطبه والعياذ بالله مجهز. ولا شبهة ان مولانا اليوم قد استقر عنده وانهي اليه ان العساكر المصرية قد بلغت اوائلها بلد غزة وتبلغ الشريعة بها بمشيئة الله مصحفها [٥]، ويعز الله تعالى بسيف سلطانه مصحفها. وان المولى الملك العزيز (٢٤٨) اعزه الله قد طوى المراحل، واختصر المنازل. واستنفر العربي والعجمي، والقريب والقصي. وقارنت يده الكريمة في الكتاب، قدمه العالية في الركاب، وعلم ان الذى دعا اليه مولانا هو النصر القريب محله، والمجتمع من المسلمين هو الاسلام كله، والمجتمع عليه هو الشرك كله. فان تملك النواصي التي نازلت تبنين بقدرة الله فلن تقوم للشك قائمة، ولن تعوم لهم في البحر

---

(١) العادل: هو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، وقد سبقت ترجمته

(٢) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور (معجم البلدان لياقوت) كما ان هناك تمنين وهي موجودة لحد الان قرب بعلبك. وكذلك هي تبنين لم تزل في جنوب لبنان.

(٣) هو العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان بن صلاح الدين الملك الناصر. ولد في مصر ٥٦٧ وتوفي ٥٩٥ عندما خرج الى الصيد وكبابه فرسه فسقط ومات، وله من العمر ٢٧ او ٢٨ سنة وكان العزيز صاحب مصر، ولما مات كان له من الولد عشرة ذكورا (البداية والنهاية ٣/ ٨٤ و٨)

(٤) تضمين من القرآن الكريم: "انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين" (سورة التوبة ٩/ ١٩)

(٥) مصحفها: اى الذى يروى الخطأ عن قراءة الصحف باشباه الحروف

عائمة . وان ينصركم الله فلا غالب[1] ،وان لم يضرب الله بسيفه من سيف دينه فلا ضارب. وما يحسب المملوك متأخرا يتأخر عن الخدمة ،ولا متلعثما يتلعثم في العزمة . ومن انصف علم ان مولانا صبر (٢٤٩) في هذه السنة صبر الكرام ،ولبس لباس الاحرام ،وسهر لله ليالي بنور ثوابها كالايام ،وضارب عنا وضرب عدونا بيد من سيفها البرق في كرم كالغمام ،ولقد ضوعف عليه الثقل فما انحنى انحناء القسي . لكن مضى مضاء السهام :

انفت له لما رأيت صفاته   بلا واصف والشعر تهذى طماطمه[2]

ولا نقول كما قال الشاعر هذا البيت والشعر تهذى طماطمه ووراء مولانا والله من ايدى[3] الداعين ،اكثر مما خرج اليه من ارجل الساعين . وقد انتهى مولانا في الارضيات الى ما فيه رضى الله ،وبقي ما في السموات وما اطيب النفس (٢٥٠) بما تفردت به يد الله.[4]

٧٨

(٢٥٢) وكتب الى العماد الكاتب يشكو مرضا به

وصل كتابا المجلس السامي مد الله في عمره ،ووقاه من صرف الزمان وغيره ،واعاده في كل سبيل من خطره ،واصفى مورد عيشه من كدره . اولا من يد فقيه ما حضر الي وطلبته فما عرفته ،وذلك بعد ان قدرت على قراءة الكتاب فانني في حال وصوله ما رايته . لان بصرى وفهمي ضرب بينهما بالحجاب،وانا الى الان في هذا المرض وبسبيله وفي عقابيله[5] ،وما خلوت في جليل الخطب ودقيقه من دقيق اللطف وجليله . فالحمد لله الذى يعافي طويلا ،ويبتلي قليلا . ويمتحن ليمحص،ويبلو ليستخلص. ولا يسأل المجلس (٢٥٣) عن وجهي وخجله ، وقلبي ووجله . لتقصيرى في هذه الطريق عن حقوقه ،ونزولي على حكم زمان كاد يشيبهنسي

(١) تضمين من القرآن الكريم : "ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون" (سورة العمران ٣ / ١٦٠)
(٢) بيت شعر للمتنبي من قصيدة " بدر وبحر" يمدح بها سيف الدولة . (الديوان)
(٣) في الاصل "الايدى"
(٤) سقطت من الاصل بقية ص ٢٥٠ و ٢٥١ بكاملها
(٥) العقابيل : الشدائد وبقايا العلة او العداوة .

بلابس ثوب عقوقه . فانه قدم على البلاد وعهده بالناس اذ هم ناس وبالزمان اذ هو زمان ، فوجد لكل امرئ منهم شأنا يشغله عن كل شأن . وبدهني من المرض ما اقتطع لبي ، وحال بيني وبين قلبي ، واقعدني والزم الفراش جنبني . فما كدت افيق لساعة الوداع ، وكما لم اكد احضر ايام الاجتماع . فاعطاني قربه الزمان وحرمنيه ، واعارني لقاءه وسلبنيه . وقد عز علي تمادى الاسفار به ، وتشذ بالاحوال وراءه . وما يصله من المكاتبات الشاغلة لخاطره ، المعلمة (٢٥٤) بقلة ناصره . فلو حضر ابقاه الله في البلد لما انكر وجها من وجوه حاضره ، وصفا كل كدر في مرآة ناظره . وحضر الموفق ابو الحسن ابن صالح وفقه الله ، وقد علم الله رغبتي في الخدمة واغتنام فرصها ، واخذى بعزائم الهمة فيها دون رخصها . ومهما يجدد له من سعادة بمشيئة الله وارادة ، واعادة عادة ووفاء ووفور مادة . فأسأله ان لا يخليني من ذكره ، ولا يعطل سمعي من دره . ولا يكلني في سماع خبره على غير قلمه ، ولا يحوجني في الاسانيد البعيدة في احاديث مقدمه . ورأيه الموفق ان شاء الله تعالى .

٧٩

وكتب اليه

وردت كتب المجلس السامي اورد الله عليه من الخيرات كل ما (٢٥٥) يملأ يديه ويقر ناظريه ، ويحبب به شكر الله علينا وعليه . وجدد له في كل زمان سعادة جديدة لا يخلقها الجديدان ، وبسطة في مجلس السلطان يتجمل بها السلطان . والكتب قديمة والاخبار التي فيها عن امة قد خلت ، وعن قضايا قد تنقلت . ونرجوا ان البيت الناصرى غير واهية اعضاده ، ولا ناقصة اعداده ، ولا متفاوتة في السعادة اولاده . فان كلا منهم يحسن اذا قد قدر ، ويجبر اذا كسر ، وارجوا ان يكون للمجلس رأى مقبول ، وقول على النصح محمول . فليشر بما هو الارى[1] المشور ، فله سياسة لو عرم البحر كان بها المسجور . وان ملت الى ترويح جسمه ، فانني يسرني ان ينبه السلاطين (٢٥٦) على نغعهم بالبقية الصالحة

---

(١) الارى : العسل

من فهمه : وارض عن الله على كل حال وامش مع الدهر كما يمشي :

من عاند الدهر كبا كبوة لم يستقلها آخر الدهر

وفي كل اقدار الله الخيار ومن عرف الله رضي عنه . وما سوى هذه من الاحوال المتعلقة بسيدنا فمع مسير الموفق ابي الحسن بن صالح رحمه الله ان تعاطيت الشرح له واستيفاء القول فيه . كان قد سألني بلاغ الموفق[١] فهو قيم بما يورده ، مشفق فيما يعتمده . فعلَّ في المستغل ما هو غير الصواب فانه امتثل وصية الحريري في السنبل الحاصل[٢] . ووقائع التوقيعات ، لا يسأل عنها الا اهل قطوع الاقطاعات . (٢٥٧) واما التوقيع فبالجملة فانه امل من الامال ، لا مال من الاموال . والله تعالى ييسره ، وان كان ميتا فينشره . وانا منتظر كتابه بتشريح جالينوس وكيف واخبار القلم والسيف ، والقرى والضيف ، وهل تتبع رحلة الشتاء رحلة الصيف . ومن حسن الاتفاق لسيدنا ما يحمل عن خاطره انني كتبت هذا الكتاب والمغرب قد تنحنح مؤذنه ، وجفن الشمس قد غمضه وسنه . فاختصرت مضطرا ورأيه الموفق .

٨٠

وكتب على لسان الامراء بمصر الى الملك العادل لما توفي الملك العزيز واقاموا ولده

اصدر المماليك هذه الخدمة مجتمعة عليها آراؤهم ، متفقة عليها نياتهم نائبة عن السنتهم ، في تعزية مولانا الملك العادل (٢٥٨) جبر الله به كسر المصاب ، وكتب له خير الثواب ، وابقى انواره على الدنيا اذا توارت كل شمس بالحجاب . ولا اعرى الاسلام واهله من ظلاله ، ولا سلبهم ما رزقوه من فضله وافضاله ، بمولاهم الملك العزيز[٣] رضي الله عنه ، رضاه عن الابرار ، وعوضه دارا خيرا من هذه الدار ، واقر عينه بما هو قادم عليه من دار القرار . وذلك ان امر الله طرقه في ليلة الاحد العشرين من المحرم فقضى نحبه ، ولقي ربه . فانا لله وانا اليه راجعون[٤] ، ولقضائه مسلمون . وربط الله على قلب مولانا

---

(١) ربما كان ابن الخلال القاضي الاديب موفق الدين يوسف بن محمد المصرى صاحب دواوين الانشاء للخلفاء . وهو آخر رؤساء ديوان الانشاء في العهد الفاطمي ، وقد جاء بعده القاضي الفاضل وتتلمذ على يديه وحفظ له حق تخريجه (توفي ٥٦٦) (الخريدة ١/٢٣٥) ، (شذرات الذهب ٤/٢١٩) .

(٢) السنبل الحاصل : يقول الحريري في مقاماته :

اذا ما حويت على نخلة فلا تقربنها الى قابل

واما سقطت على بيدر فحوصل من السنبل الحاصل ، اى اذا ما حصلت على ثمر نخلة فلا تؤجل اكلها الى السنة القادمة ، واذا ما وصلت الى بيدر وهو البيدر الذى تداس عليه الحبوب ، فحوصل اى املأ حوصلتك — بطنك منه . (المقامات ، المطبعة الميرية ببولاق ، مصر ١٣٠٠ هـ . المقامة ١٦ المغربية) .

(٣) مرت ترجمة الملك العزيز . ص ٩٠

(٤) تضمين من القرآن الكريم : " الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون " (سورة البقرة ٢/١٥٦) .

بالصبر، والهمه التسليم للامر، الذى ليس لذى امر معه امر. فلو كان الاجل عدوا يكاثر، او خصما يناظر، (٢٥٩) او عدوا يكابر، لكان المماليك قد بذلوا دونه النفوس، التي هي ودائع والده رحمه الله لديهم، وفلوا دونه السيوف التي هي من نعمة في ايديهم. ولكنه مقام ما استطاعوا النصرة فيه الا بما في العيون من الدموع الجارية، لا بما في الايدى من السيوف الماضية. ولا يشك المماليك في رأى المولى في عمارة بيته، واقرار الامر في عقبه، وتوفية حق الملك الناصر اخيه رحمة الله عليه. وانه كما لم يخرج الامر من الملك العزيز الماضي رحمه الله، كذلك لا يخرج الامر عن ولده الملك المنصور محمد[١] الذى كان قد استنابه عنه في آخر اسفاره وجعل اتابكه[٢] شيخ الجماعة وبقية اكابر مماليك الدولة المملوك قراقوش[٣]. واتفقت كلمتهم على المولى الملك المنصور المشار اليه وحلفوا على صحة الطاعة، وصدق النصرة، والقيام بحق الخدمة. وعلم المماليك ان المولى (٢٦٠) يختار المملوك قراقوش لخدمته وتربيته فاقتدوا برايه وائتمروا فيه بامره، ووقع الامر بينهم في ذلك على غاية الاتفاق، وصفاء النيات، وطيب القلوب، وصحة الائتلاف، وحسم اسباب الاختلاف. ومولانا عالم ان المماليك مماليك هذا البيت، كبيرهم عاش على طاعته، ودارجهم درج على خدمته، وصغيرهم ربي في فضله، وتغطى بظله. وكلهم على الوفاء لهذا البيت صغيره وكبيره، وسلطانه واميره. لو بقي منهم من بقي كانت قلوبهم له قلبا، وكان رقهم له ملكا. وكما اتفقت كلمتهم على ما تقدم ذكره، فهي متفقة على ما يأتي ذكره. وهو ان مولانا الملك العادل كبير السلاطين، وسيف المسلمين، وخصم القوم الكافرين. وان من نعم الله على عباده وبلاده (٢٦١) ان فسح له في الاجل، ومد له في المهل. ليجمع به شمل هذه الملة، ويحمي به القبلة عن اعداء القبلة. وان المماليك لامره سامعون، ولحكمه طائعون، ولرأيه تابعون، وتحت رايته سائرون، وان الغائبين منهم بقلوبها وطاعتها بين يديه حاضرون. فمهما مثل امتثلوه، ومهما رأى من آرائه المقبلة قبلوه، ومهما دعاهم اليه من الجهاد، على الجمع وعلى الانفراد، سارعوا الى طاعة رب تبشرهم طاعته برحمة منه ورضوان، والى طاعة

---

(١) هو ابن الملك العزيز عثمان. توفي والده هذا سنة ٥٩٥ وكان لابنه هذا عشر سنين. فملكوه وجعلوا الملك الافضل اتابكه. وقد دام ملكه حتى ٥٩٦ اى انه استمر سنة واحدة وتسعة اشهر. (النجوم الزاهرة ج ٦/ ١٣٠، ١٥٢)

(٢) الاتابك: الذى يربي اولاد الملوك.

(٣) سبقت ترجمته.

سلطان نفوسهم طيبة بان لهم سلطان . متحققين انه يدعوهم الى كل خير، يوضح لهم سبيله ويكون عليهم دليله . فسلطانهم ولده وعبده ، (٢٦٢) ومماليكه مماليك مولانا وجنده . والله تعالى يثبت على الهدى بصائرهم ، ويجمع على الطاعة لله ولولي الامر سرائرهم ، ولا يفني ولا يقطع من اهل هذا البيت اواصرهم . ويبقي مولانا فما غاب توفيق عما هو حاضره ، ولا فل دين هو سيفه ، ولا ذل ملك هو ناصره . طالع المماليك بذلك ، والرأى اعلى ان شاء الله تعالى .



وكتب الى العماد

ورد ت كتب من المجلس السامي لا عدمت كتبه ، ولا عدم قربه ، ولا خلا من المسرات قلبه ، ولا فقده من يحبه ، والدعاء يتوجه الي قبل كل من يحبه ، فانني بشهادة الفضل احبه ، واحب كل من يحبه . وسيدنا علمنا عطف الكلام على (٢٦٣) الكلام ، وعودنا اذا شاقتنا المعاني ان يشتق الالفاظ كما تشق الاقلام ، ولو كان سيدنا الذى يشقها لكان كما تشق الاكمام . اشتملت على كل غريبة وكل غراء احسن من الغرار [1] ، واصدق من دلالته على النهار ، وادل على فضله من تغريد الاطيار على الاشجار . والله تعالى يبقي منه كمامة الدنيا ثمرة هذا الوجود ، ويحسن عنا جزاء اقلامه التي كادت بنظم دره تكون مأمورة بالوفاء بالعقود . وكل هذه الكتب وردت على ايدى قوم باسطي ايديهم والسنتهم بطلب حاجات عدت دونها العوادى ، واوصلت الى الاعجاز الذى ما عدل من يطالب منها بما يطالب بمثلها في الهوادى [2] . (٢٦٤) وما تبدلت الآفاق ، ولكن تبدلت الاخلاق ، وما انقطع تردد تجار الامال ، ولكن خابت الاسواق ، وفي هذا كفاية . وما اتعرض الى ذكر صعوبة الاحوال لئلا يكون ذلك نوعا من انواع الامتنان على سيدنا . فقد علم الله ان هذا ما هو مذهبي ولا مركبي . ولولا حسن الاتفاق في كون ناظر الاسكندرية صديقا ، وكون داره

---

(١) الغرار : الخداع

(٢) الهوادى : الاعناق

لحاجاتنا طريقا . لما حصل هذا المقدار ولا ايسره ، ولا قضي الحق ولو ان مقتضيه الذى هو انا بحضرة . والا ن قد انقضت السنة ونحن على الطلب، ونرجو ان لا يقطع الله ألسبب وعلى كل حال فالمقوم يأتي ومن قسم له جالس ، ويستيقظ ومن سيق اليه ناعس، ولو ترجل الطلب لجاء (٢٦٥) الرزق الـفـارس . واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس ، والتصوير والتكييف ، والتصانيف التي يصرف فيها البلاغة احسن التصاريـف ، نعمة يجب شكرها على العلماء ، ويختص باللذة بها سادتهم من الفهماء . ونحن فـي انتظار البرق الشامي [1] " ان يمطر ، وحاشى ذمة الوعد ان تخفر ، واما القاضي عزيز الدين احسن الله بقياه ، كما احسن مرباه . فقد شوق سيدنا بخيره الى نظره ، وبسلامه الـى كلامه . واستكرمت الدلائل الواعدة ، واسترجحت المخائل الشاهدة . والله تعالى يمد في اجله ومن مهله ، ويجعل الليالي من اياماه [2] والا يام من خوله [3] ، ان شاء الله تعالى .

(٢٦٦) وكتب اليه :

اصدرت هذه الخدمة الى المجلس السامي لا زالت وفود النعماء اليه صادرة ووجوه السعادات به وعليه سافرة ، ولا برحت وقاية الله مشتملة عليه في الحالين الباطنة والظاهرة ، ونعم الله مكتنفة بآماله في الدارين الدنيا والا خرة . عند حضور الطواشي زين الدين [4] عائدا الى الشام وفائزا بمشاهدة مولاه . وليتني كنت معه فانقع غليلا ،

---

(١) اسم كتاب للعماد الكاتب

(٢) اياماه : الا يامي في الاصل الذين لا ازواج لهم . والا يامي ايضا القرابات الا بنة والخالة والا خت ، وهذا هو المقصود هنا (لسان العرب مادة اوم)

(٣) خوله : عبيده واماؤه وغيرهم من الحاشية .

(٤) هو زين الدين يوسف بن زين الدين علي بن كوجك صاحب اربل . وكان عماد الدين قد استولى على اربل وسلمها له وبقيت لا بنه من بعده الملك المعظم مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين . مات مرابطا على عكا سنة ٥٨٦ (مفرج الكروب ٢ / ٣٣٩ وسنة ٥٨٧ حسب (شذرات الذهب للحنبلي ٤ / ٢٨٨) و ٥٨٤ حسب (ابن خلدون ٥ / ٣٢٤)



واوجد الى الراحة التي عدمتها من تاريخ فراقه سبيلا . واجدد عهدا بمن لا انساه وبمن لا اقبل الخلافة عنه من ذكراه . فهذا معنى من اكاذيب الشعراء المتلاعبين بالكلام ،الذين يقولون (٢٦٧) ما لا يفعلون [١] وما لا يفعل الاقوام . بل لا اجد من ذلك الوجه خلفا ولا اقبل منه عوضا ،ولو كان روضة انفا [٢] ولا ارى الدنيا لساعة من ساعات قربه غرضا ،ولا ازال ساخطا عليها حتى تعيد الي من قربه عهد الرضى .

" فان نعش نجتمع والا فما اشغل من مات عن جميع الانام" [٣] وانا على ما نعلمه جملة من الالسنة ،وعلى انقطاعي عن قضاء الحقوق بينة . تشهد به وكفى به بينة من العزلة الا انها بلا سكون ،وفي الزاوية السنونة لا هل العافية الا اني على مثل خد المسنون ، وكيف يعيش العاقل في الزمان المجنون . وقد تيسرت مائة دينار تسلمها قسطنطين (٢٦٨) وهي على يده ويوصلها الى تلك اليد الكريمة اعان الله كرمها ،وامد بالذهب ديمها ،كما امد بالذهب قلمها . يجرى عليه ذهب محلول ،كل ذهب عليه محمول .



وانا مستوحش لكتب سيدنا فلا يجمع على الوحشتين من نفسه ومن انفاسه ،ومن وجهه الذى هو كورقة المصحف ومن قرطاسه .

فقد يقنع المشتاق ما ليس مقنعا وان لم يكن قبل النوى بقنوع



المولى القاضي عزالدين احياه الله حياة طيبة ،وانشأه نشأة فنجبة معجبة . وبلغه ما بلغ الاب والجد واعظم واتم مخدوم السمع بالتحية العذبة ،وفي القلب اليه (٢٦٩) كنوز اشواق لوان لها مفاتيح لكانت تنؤ بالعصبة .

٤١

---

(١) " والشعراء يتبعهم الغاوون" " الم تر انهم في كل واد يهيمون" " وانهم يقولون ما لا يفعلون" (سورة الشعراء ٢٦ / ٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦)

(٢) روضة انف : اى لم يرعها احد

(٣) يبدو انه بيت شعر سلك مع سائر الكلام .

٨٢

كتاب اليه ايضا

ورد ت كتب من المجلس السامي لا عد مت وارد ها ومورد ها ، ولا اخلفت الايام املي فيه وموعد ها ، وانجح الله مقصد ى في خد مة كاتبها ومقصد ها . على يد جماعة منهم خواجه رشيد ودرج الى رحمة الله وبات ليلة ما استكملها ، وصبحته صبحة ما وليها عمره بل اعتزلها . وما امر به في حق حامليها اتيت منه ما استطعت ، وانقطعت معذ ورا منه عما انقطعت ، (٢٧٠) وهي الايام تربنا ما لا يخطر ، وتنشيء لنا كل يوم عارضا من العوارض التي تشجي لا من العوارض التي تمطر ، وما وقع وكأنه غير متوقع ، وفجع باطيب نفس انها ببد يهته تفجع . المصاب بالملك العزيز[١] رحم الله صداه ، ونقع ثراه . فانه قبض رحمه الله في ليلة صد قنا مناكبها ، واضلتنا كواكبها . فكثر الذكر للملك الناصر[٢] ، رحمه الله وتجد د المصاب الاول بالمصاب الآخر . وتخطت اليه المنون ما د ونه من الحجاب والحرس ، وقطعت طريق انفاسه اسرع من رجع النفس . ولله مصاب ما اشده ، وسهم ما اسده ، وعبرة ما اجراها للعبرات ، وعثرة ما (٢٧١) اجلبها للعثرات ، وحسرة ما اجذ بها لعنان الحسرات ، وكتبته والى الان ما خمد ت النائرة[٣] ولا سكنت الثائرة ، ولا وصل الناس الى العاقبة ولا فرغوا من البادرة . فانا لله وانا اليه ، ورحمة الله على والده الماضي وعليه ، ونسأل الله حسن منصرف عن هذه الدار تصرف عليه ، وحسن موقف فقد قرب وقوفنا بين يديه ، وما شرحه سيدنا من اسعار راخية ، واحوال للمسلمين زاجية . الله المشكور عليه ، وما احسن الحسن اذا جاء من لسانه يحسن اليه ، وغير ذلك (٢٧٢) المتجددات التي قد صرت اقنع منه باطرافها لا بطرفيها ، وبان اصل الى حجرها لا غرفها . ويقلب الله الليل والنهار ، وينسخ اقدارا باقدار . والجامكية[٤] بدمشق عجبت لابن الكامل[٥]

---

(١) هو الملك العزيز صاحب مصر ، وقد مرت ترجمته ص ٩٢
(٢) الملك الناصر ، صلاح الدين الايوبي ، هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن ايوب . ولد سنة ٥٣٢ وتوفي سنة ٥٨٩ ، وهو القائد الشهير الذى حارب الصليبيين واجلاهم عن الديار العربية (البداية والنهاية ١٣/ ٣ و ٤)
(٣) النائرة : اسم فاعل للمؤنث وهي العداوة والشحناء ج . نوائر .
(٤) الجامكية : المرتب
(٥) ابن الكامل : هناك في ابن خلكان : ابن الكامل ابو الميمون المبارك بن كامل بن على بن مقلد بن منقذ الملقب سيف الدولة مجد الدين . كان من امراء الصلاحية . جده سديد الدولة علي وابن عمه اسامة بن منقذ . ولد ٥٢٦ وتوفي ٥٨٩ (ابن خلكان ٣/ ٢٩١)

رحمة الله على والده وكونه يحوج الى ما يحرج ، ويضم يده عما عنه لا يفرج . وما عهد الناس من ابيه وجده الا كرما عربيا ، وما عرفناه الا قد لقي اخلاقهم مذ كان في المهد صبيا [1] . قد سرتني وبرتني اقلام سيدنا باخبار القاضي عزيز الدين الولد ابقاه الله ، وتوسمت فيه اجابة النجابة الى موعدها ، وعادة السعادة في بيته لا اخلت بمتعودها . واسأل المجلس ان ينوب عني (٢٧٣) عند المولى الاخ تاج الدين . ذكره الله بما هو فاعله فانه الخير ، وما لي في بغداد ارب غير هذا الارب لا غير .

٨٤

وكتب اليه

ورد من المجلس السامي طابت اخباره ، وحسنت آثاره ، ودام من القلوب ايثاره ، وبحباتها استيثاره ، وجرى سابقا لا يتوقع من الاعداء سقاطه ولا عثاره كتابان احدهما من تاج الدين ، والى الان ما لقيته لانه وصل وانا في غمرة مرض وانقطع فيها عني العواد اياما ، واذهبت القوى اوجاعا وآلاما ، وانا ابلغ في امره مجهودي وارجو ان يفي بمقصوده مقصودي . فانني اوثر قضاء حق من ينتسب الى معرفته وينتمي الى جهته ، ولكن قد ضربت العزلة علي (٢٧٤) الحجاب ، واغلقت مني ومن دوني الباب . وبالله اقسم انني غير شاك في حسن اختيار الله لي فانني لو كنت اليوم ممن يتصرف لقطع بي الضعف ، وعكس مشيي المعهود الى قدام ، فكان الى خلف ولا نهزمت انهزام الجبان من الصف . فلا يقضي الله لعبده قضاء الا وهو خير ، فوظيفته في كل مقدور الشكر لا غير . وقد اسفر هذا الكتاب وما قبله على يد الشيخ ابي الغهم [2] عما سررت به وارتحت اليه من الانعام العادلي الذى سمحت به اليد الكريمة الباسطة ، من غير واسطة . وعلم ان الواسطة ، ما كانت (٢٧٥) قاسطة . وهذا المالوف من هذه الذرية ، البرة بالبرية ، ومن اولى

---

(١) تضمين من الاية : " فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا " (مريم ١٩ / ٢٩)

(٢) ابو الغهم بن ابي العجائز الازدى الدمشقي واسمه عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد وهو راوى حديث سحنام عن ابي طاهر الحنائي . توفي سنة ٥٧٦ هـ . (شذرات الذهب ٤ / ٢٥٧)

بمعروفها من سيدنا لبس في خدمتهم الشباب، والمشيب، والثوبين وكلاهما القشيب ولا احزن قلبه ولا اقرع سمعه بانه لابس خلق .

والشيب ان يعجل فان وراءه　　عمرا يكون امامه متنفس

لم ينتقص مني المشيب قلامة　　الآن حين بدا الب واكيس

وهذه دعوى منصورة بدليلها، مستقلة بنصها عن تأويلها، وذلك ان ما يصدر من غرر محاسنه، ودرر معادنه اسنى حسنا، وآنس مغنى ومعنى يومها اكثر من امس، وما (٢٧٦) انصف معانيها من فداها بالنفس. فوالله انا من العتبى والعقبى في ديباج خسرواني، وروح وريحان ارجواني. فكم بدد فيها من فقرة، وكم نظم فيها من درة. وقلت لاصحابنا الذين استثنى بهم القائل :

مضى السلف الوضاح الا بقية　　كغرة مسود القميص بهيم

وهم اللمع والايام دآدى[1]، والبياض الذين يسكنون بفؤادي. اتعرفون صفة ليلة برد احسن من قوله للغدير هدير، وللزمهرير هرير، وهل سخرت الحروف لخاطر كهذا التسخير، وهل سمع باسهل من هذا الصعب في الزمنين الاول والاخير. فكلهم آمن به وما منهم من صد عنه (٢٧٧) وكل اصفقوا على انه راكب الغضنفر، ولا رديفا رديف، وشارب الكأس ولا حريف، ويخشى هو وقس امة وحدهما ويأتي البلغاء في اللفيف. ونعود الى ذكر الانعام العادلي فقد وجب على كل موجب حق لسيدنا شكره وذكره، وعمنا اذ خصنا بره، فليهن يده الحسنى شكر سيدنا وحسبها شكره. واذا وصل هذا الانعام مع الاقامة والسكون فهو اروح واصلح من اكثر منه مع الانزعاج والخروج. واللمعة تضيء السبيل، والجرعة تشفي الغليل، وكل كثير هذه الدنيا قليل .

فصل : فكان هذا الجواب جدد املا سملا (٢٧٨) وقدم رجاء مرجأ. وما انعم به من المتجددات[2] شكرته. وعجبت وعجب كل سامع من قصة ولدى قلج[3]، فقبح الله الدنيا

---

(١) دآدى : سريعة العدو.

(٢) مذكراته السنوية .

(٣) هو قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن اسرائيل بن سلجوق . . صاحب الروم وحمو الناصر لدين الله. امتدت ايامه وشاخ وتصرف اولاده في ممالكه في حياته وهي قونية واقصر وسيواس وملطية. وعاش سلطانا اكثر من ٣٠ سنة وتملك بعده ابنه غياث الدين (شذرات الذهب ٤/ ٢٩٥ ، وكذلك في ابن الاثير ٩/ ٢٢٢ ، مطبعة الاستقامة القاهرة) .

من عجوز يعشقها الصبيان ، ويتخاون عليها الاخوان . والخصب الذى بشر به جعله الله عاما لاهل الاسلام ، خاصا لسيدنا على تعاقب فصول الايام . وكتبه الكريمة للنفس قوت ، وكلها للانس كتاب موقوت . فينعم بها منة منه ، ينهي بها فضلا ما سواه له منه، ان شاء الله تعالى .

٨٥

وكتب اليه

ورد كتابا المجلس السامي اعلى الله خطره ، وادنى وطره ، ولا قطع من الدنيا اثره ، ولا امتحن محبيه بان يقطع عنهم خبره . (٢٧٩) ويطوى عنهم حبره [1] . مقصورين على ما خلاصته امر الاقطاع وخوفه من ان يوقع به في هذه الغمرات ، ولا يحضره من ينبه عليه في اوقات الغفلات . وهذه في البادرة مما لا يمكن الاحتراز منه والوصية فما اخللت بها لجميع الحاضرين مجلس السلطان الحاضر عز نصره . وهم الذين لست انا منهم خلافا لما بلغه من ان لي مشاركة في الامر ، ورجوعا بعد الهجر ، الى اعرابية الطبع . والله يعصمني من غوائل الخلطة [2] ، ويعينني على منافع العزلة ، فما اشد رغبتي فيها وما اشد مقتي لمن يحوجني الى مخالفة المعقود من الله منها . وبالجملة فيجب ان لا تحمل بهذا الاقطاع هما ، ولا تستشعر (٢٨٠) بسببه وهما . فان مثله لا يستكثر لاستحقاقه ، ولا يخشى فيه الا سهو لو وقع لوقع التنبيه على استدراكه . وما سوى هذا من المتجددات في الدولة التي افلت وطلعت ، والاحوال التي امتنعت وامتعت ، فان الله يمحو ما يشاء ويثبت ، وينطق ويصمت ، وقلبي من اهل الجمعة ولكنه مسبت . وما اتت الايام بغريب من استوطنها لم يستغرب غرائبها ، ومن سكنها لا بد ان يرى من حركاتها نوادرها ورواياتها . والله يوفقنا للاعتبار ويصرفنا عن الاغترار .

٨٦ — ٨٧

وكتب اليه

---

(١) حبره : اى ملاءاته : الملاءة ثوب اسود تلبسه النساء مفردها حبرة
(٢) الخلطة : الشركة

وصل كتاب المجلس السامي مد الله في عمره ،وزاد في قدره (٢٨١) ولا اعدم اوليائه عادة بره ،ولا اعدمهم عادة شكره ،ولا اخلاهم من محاسنه التي هي محاسن دهره ، فتلك المحاسن هي اللمع في اديمه ،والغرر في بهيمه . والاعذار من ذنوبه ،والسحائب في جدوبه ،والشفاء من ندوبه[1] ،والفرج من كروبه ،والمخاطبات بها هي المنفسات عن الانفس من خنق ايدى خطوبه . وكان عهدى به قد بعد ،وتطلعي اليه قد طال ،وانسي قد استوحشت منه ،وسكوني اليه قد تحركت الدواعي لطلبه ،ولم يكن تأخر الكتب من قبلي الا لان الايام اخرتني عن قضاء الحقوق كلها ،واعجزتني عن تأدية فرضها ونفلها ، مذ استهل شهر ربيع الآخر (٢٨٢) والى تاريخه مريض مهيض طريح طليح ،بل ضريح ، وحي كميت بل ميت صريح ،بوجع المفاصل ،وتعمد سهم الدهر منها احدى المقاتل . والعجز عن الحركات ،وعن تلقي المفتقدين بل عن تلقي الكلمات. والا فالذى اشار اليه المجلس من العوائق ،وما في الطرق من الطوارق . لا اراقبه لانني ما اكتب الا بما اعتذر من انني كاتبه فامور الدنيا قد اضربت عنها صفحا ،وطويت عنها كشحا ،والسكران قد صحا والافق قد اصحى ،والخواطر قد كبت منها الموريات قدحا[2] ،والاقلام قد اعتقلت منها المغيرات صبحا[3] . وما كنت قط ممن (٢٨٣) يتعرض في كتاب او خطاب الى ما يحتاج فيه الى القبيحين الجحد والعذر ،ولا ما استوجبت فيه غير الجميلين المحبة والشكر . وقد تركت الدنيا لاهلها فعلى ماذا يقع التجاذب ،وفيما يتهم الكاتب . واشتغلت نفسي بترقيع جسمي الواهي الخلق ،واغلقت بابي وعجزى عن الحقوق على الباب غير الغلق .

وقعدت انتظر الغناء كراكب عرف المحل فبات دون المنزل

ما همي الا ما انا عليه قادم ،وما خوفي الا مما انا فيه لنفسي ظالم ،وما تعويلي الا على عفو الله فيما انا مستغفر منه وعليه نادم . ما ذكره من المتجددات بحسب ما (٢٨٤) وصل اليه عرفته ،وما هو مستطلعه من رأى امده به في حقه ينبغي ان يستطلعه ممن هو مباشر ،لا ممن هو غائب ويسمى بحاضر. وما سمح به بحر خواطره ،وقذف به من ثمين جواهره ،فقد كاد ما عندنا من اشباهه ونظائره ،ان يهاجر اليه ويلتمس ان يؤنس

---

(١) جمع ندب وهي اثر الجرح .

(٢) "فالموريات قدحا" سورة ١٠٠ / ٢

(٣) " فالمغيرات صبحا" سورة ١٠٠ / ٣

تالده بطارفه وغابره بحاضره . وما يزداد خاطر المجلس اذا هرمت الايام الا شبابا ، واذا اخطأت مرامي الخواطر الا صوابا . اذا انجلت منه سحائب اعقبت بسحائب ، واذا افلت منه كواكب اشرقت كواكب . وهو اذا سيرها الينا سيرها على الالسنة ، وسورها بسوار فانها عقائل مستحسنة محسنة . وعندنا منها ولله الحمد (٢٨٥) ما يفخر به على الزمن الاول الزمن الاخير ، وما نأكل منه ونطعم البائس الفقير . فما اولاه ان ينظم قرآنها ، ويملأ كنائنها ، وما نقول انها في خزائن ولكن نقول ان القلوب ما برحت خزائنها . واطلت هذه الجملة والضجر على غالب ، وغريمي عن الخاطر غائب . وهي تعرض منه على من يعرض من العورة ولا يعرضها للكاشف ويدفع بالحسنة السيئة [1] ، ولا يتوقف عليها ولا يواقف ، لا عدمنا انفاسه البيض وانقاسه السود ، وخاطره الجواد وروضه المجود ، ان شاء الله تعالى .

٨٧

(٢٨٦) وكتب اليه :

ورد كتاب المجلس السامي مد الله في عمره ، ولا اخلى العيون من نظره ، والاسماع من جوهره ، ومحافل الخير من محضره ، ولا اعدمنا معشر الاولياء السرق من روضه الذى لا قطع في ثمره ولا كثره . على يد الموفق ابي الحسن ووصل كتابي الى اليد العالية السلطانية قبل وصوله الي . ولا شبهة انه وقف عليه ، ولو وقع في يدى لاحتجت الى يد توصله الى يديه . وفيه آمال قد عرضت على سمعه ، ووراءها ما شاء المؤمل من كرم طبعه . وتولى الجواب عن كل ما تضمنه الموفق وقد خرج يوم الاجابة الى المخيم المنصور لعرض القصيدتين ، واستنجاح المقصودين . والذرية الناصرية انماها الله على الرعاية لقديم سبقه ، والايجاب لعظيم حقه . وان كانت اليوم شواغل فيرجى (٢٨٧) الفراغ منها في الغد ، والبلاغ بمشيئة الله الى نجح القصد . وما احسب انه بقي في يد مقطع من المقطعين اقطاع الا انتقض مبرمه ، ونسخ محكمه . الا ما في يد المجلس العمادى فكل من سمع من الطالبين نسبة الاقطاع اليه ،

(١) " والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم . . . ويدرؤن بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار" (سورة الرعد ١٣/٢٢)

علم ان الطريق تقطع عليه ، واما توفره على الدروس التي يلقيها فلا عدمته الدنيا وزيرا والاخرة فقيها . ومن حمل راية علم وجب عليه ان ينشرها ، ومن تقدم فئة وجب عليه ان ينصرها ، ومن اودعه الله سريرة علم وجب عليه ان يشكرها ، بل يذكرها . وهذا خير ما صرفت فيه الاوقات ، وكلامه قوت القلوب فما تكلم الاوقات . وكتبه الكريمة عقائل مخطوبة ، (٢٨٨) ونجدة للخواطر فانها من الهموم مغلوبة . تعطف سوالف الليالي السوالف ، ويجلو على العيون ملك الايام العذبة المراشف . والله الموفق في الاجراء على العادة الجميلة فيها وعلى السجية المسكونة في الاتحاف بها ان شاء الله تعالى .

فصل : وكان القوم قد تيقنوا رحيلنا يوم العيد اليهم وعرفوا وتغرقوا وهب فيهم رعبنا هبوب الريح في رجل الجراد ، وتجافي الامن عن افئدتهم تجافي سيوفنا عن الاغماد . فتفرقوا ايدى سبا [١] ، قبل ان تشب في محتطب حشودهم نيران المزروبة الشبا . ورحلوا ليلة عرفة فنفروا قبل النفر ، ونحروا قرابين حذرهم قبل يوم النحر ، (٢٨٩) وعادت عشرات الوفهم الى الآحاد قبل انقضاء العشر ، ولقوا في ليل فرارهم من الوهل [٢] هول يوم الحشر . ووصلنا الى راس عين ، وليس من رأس القوم اثر ولا عين . فقد عاد كل منهم الى حصنه وفلق رهنه بوهنه [٣] .

فصل : وقد كانت ليلة الخميس بدمشق ليلة مباركة ما غسل ظلامها الا السيول لولا الصباح ولا ابتسم صباحها الا وقد كادت تبتسم عن نبتها الجبال والبطاح . ووقع على الاطواد من الثلوج اطواد ، وتدارك الله رمق الزرع واحيا رمم [٤] البلاد . فالله تعالى يجرى المولى فيما ولاه على ما يجرى بالدعاء له الالسنة ، ويجعله في (٢٩٠) الاخرة والدنيا ممن جاء بالاحسان والحسنة ان شاء الله تعالى .

---

(١) تغرقوا ايدى سبا : سبأ اسم رجل ولد عامة قبائل اليمن . وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقولهم تغرقوا ايدى سبأ اى تبددوا تبددا لا اجتماع من بعده . وذلك لان الله ارسل على تلك الارض السيل فافرقها واذهب جناتها فانتزع سبأ وقومه وتبددوا في البلاد فضرب بهم المثل (المحيط لبطرس البستاني . لسان العرب لابن منظور)

(٢) الوهل : الضعف والجبن والغزع .

(٣) الرهن الغلق : الرهن الذى يستوجب الدفع ، وهو ضد الفك . (لسان العرب ، فلق)

(٤) وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم (سورة يسى ٣٦/٧٨)

٨٨

وكتب الى ابن الـزكي[1] في حق الجمال الواسطي[2] اقتصرت في هذه الخدمة المكاتبة الى المجلس اتم الله عليه نعمه ،وتابع لديه منحه وقسمه ،وثبت في مواطن السعادة قدمه ، واجرى بالخيرات لسانه وقلمه . على شأن الجمال الواسطي صديقنا وصاحبنا، وموالي حاضرنا وغائبنا . لأدُلّ سيدنا على مكان العناية وموضع الشكر ،على ما ينعم به في حقه والقران شافع نافذ الامر على سيدنا يكرم اهله ومعارفه . كما يكرم محاريبه ومصاحفه . وله صحبة وخدمة كلتاهما توجبان لا نخاف الدهر في تقلب يوميه ،ولا العام في توقف شهريه . وما ادله على مكرمة وهو (٢٩١) اصمعي باديتها ،وفارس عاديتها . الممكن اعلم انه لا يتأخر . والواجب لا نفع منه اهمال له واليد عند المذكور واحدة ولها مني ومنه شكران . وهذه تجارة يعرفها تجار المجد ،ومشترو اعلاق الحمد . وسيدنا كبيرهم الذى علمهم الفضل ،وسيدهم اليوم وابن سيدهم من قبل . وسيدنا يتعلق في شهرته باضعف التأويلات فقد وقع له بسنة كاملة وما المعول الا على عنايته الحاملة . ان شاء الله تعالى .

٨٩

وكتب الى العماد

جددت هذه المكاتبة الى المجلس السامي انار الله خاطره ،ورفع ناظره ،وكلاء غائبه وحاضره ،وسر باطنه وظاهره . على ابلاغه شكرى الموصول بشكر الجمال (٢٩٢) الواسطي فانه اقترض مني شكرا فعرفته ان ذمتي مشغولة بشكر اياد منه ما وفيت قروضها ، ولا اديت فروضها ،وان بلغت آفاق الحمد فما بلغت حظوظها ولا حضيضها . قال في

(١) محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز ابو المعالي القرشي ،محيي الدين قاضي قضاة دمشق وكل منهما كان قاضيا ابوه وجده وابو جده يحيى بن علي وهو اول من ولي الحكم بدمشق منهم. اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين ابي سعد عبد الله بن محمد بن ابي عصرون وناب عنه في الحكم وهو اول من ترك النيابة وهو اول من خطب بالقدس لما فتح . تولى قضاء دمشق واضيف اليه قضاء حلب وكان ناظرا اوقاف الجامع،وكان ينهي الطلبة عن الاشتغال بالمنطق. توفي سنة ٥٩٨ (البداية والنهاية ١٣/٣٢)
(٢) سبقت ترجمته (ص ١٠)

كتابه صانني ومانني ، واغاثني واعانني ، ووفى لي في زمان خانني ، واكرمني على رغم دهر اهانني . ومن شكر فشكره وكيل في الاستدامة والاستزادة ، وعادة سيدنا الخير والخير عادة ، والاحسان كالحظ يعفو على الدهر ان لم تتفقده الاعادة . فلا زال سيدنا لالسن الحمد مستنطقا ، ولمعاني الشكر مستغرقا . ولا برح قلمه بابا من ابواب الفرج لا يغلق ، وسيفا من سيوف (٢٩٣) الاسلام يمضي وبالذم لا يتعلق ، وبالدم لا يعلق . ان شاء الله تعالى .

٩٠

وكتب شفاعة لابن المقدم[1]

اعز الله مولانا الملك الناصر وحرسه في نفسه واعزائه ، ونقل الى اوليائه مواريث آلائه . وابقاه يكفل الايتام ، حتى تود الاباء انهم ايتام[2] ، ويحفظ الذمام ويصله اذا انقطعت عرى الذمام . ورد على المملوك كتاب مظفرى يذكر حال الامير ابراهيم[3] فيما دهمه من مصابه بأبيه ، ومضيه على السبيل الذى يبيض وجهه في القيامة ولا يخزيه ، وعلى وفائه بالطاعة فالمولى اولى بما يوفيه فان هذا الولد ، ونعمة مولانا ، انه كما وصف فيه رجل ابيه ورجحان (٢٩٤) الشباب ، وشجاعته في موقف الحروب وزيادة الوقوف في المحراب . ورغب له في ابقاء حراسة ابيه وايراده من مورده ، وانجاز ما يعده ، قد حسن لمولانا من موعده . وان يؤذن له في ابقاء الكوس[4] والعلم ، فقد مات ابوه قتيلهما . والخدمة بهما جريا على عادته والاحسان اليه الان من حسن العهد ، ومكارم المولى تقبض يد المنع ولا تبسط لسان الرد . فان رأى المولى ان يجبر كسره ، ويشد ظهره ، ويخفي عليه مذاق الرزية ، ويجدد له فضل المزية . فعل مجيبا لمسألة الشافع وحافظا لحرية الدارج . ان شاء الله تعالى .

---

(١) سبقت ترجمته وهو الامير شمس الدين نفسه كما ورد من قبل (ص ٨٨)

(٢) تضمين من بيت شعر لابي تمام :

وتكفل الايتام عن ابائهم   حتى وددنا اننا ايتام .

(٣) الامير ابراهيم بن سقمان بن ارتق ، صاحب حصن كيفا . حكم هذا الحصن بعد ابيه سقمان سنة ٤٩٨–٥٠٢ (ابن القلانسي ص ١٣٧–١٣٨) (ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨)

(٤) الكوس : الطبل . . . وهو والعلم من رموز الحرب .

٢٠١

٩١

وكتب شفاعة للفقيه ابن شاس[1]

(٢٩٥) ادام الله ايام مولانا الملك الناصر وحرس دولته بعونه واعوانه، وسيفه وسنانه، وبيانه وبنانه، وفتكه واحسانه، وشكره على دينه الذى قضاه سالف ادیانه. يهنى المملوك ان ايام مولانا مواسم النعم، وتواريخ الكرم، اعلام العلم بها مرفوعة، والادعية الصالحة فيها من الله مسموعة. قد رفع الله بها الذين اتاهم العلم درجات، وذلهم ودل بهم على طرق النجاة. وقد ازاحت عللهم، وسدت خللهم. الايادى التي كثرها، والمدارس التي عمرها، والمشائخ التي صدرها، فاقتدح ماء المنن، نار الفطن، وظهرت مخبات الخواطر، واستبقت ضوامر الضمائر، واسفرت (٢٩٦) المباحث عن مكنون الجواهر. وممن قرأ فدرى، وحرص فخلص، ودرس فرأس، الفقيه عبد الله بن شاس[2]. فلم تبعد مسافة ما بين دخوله المدرسة جالسا في آخرها متعلما، وبين تصدره في محرابها عالما ومعلما. ولبس العلم قبل ان يخلع برد الشباب، وسبق بآخرة جلة الاصحاب. ولابس الطلب بنشاط وارتياح، وضرب في عدة علوم دينية بقداح. مع نشأة صالحة، وركانة راجحة. والمقدر الذى له لا يكاد يقوم بالاود، ولا يجوز عقبه اليوم الى الغد. وقد تكلف هجرة ثانية، وسفرة للسفر الاولى تالية. فجمع بين تبطيل موعد كان للطلبة به نفع، وبين غرم انفاق وواد ى حاله غير ذى زرع[3]. لا زال (٢٩٧) مولانا قريبة عواطفه، قرينة للسؤال عوارفه. ان شاء الله تعالى.

٩٢

ومن مكاتبة

احسن الله عواقبه، ووسع مذاهبه، كما وسع مواهبه، كما ارسل سحائبه، كما امضى قواضبه، كما انسى مدى الدهر نوب الدهر ونوائبه. وشكر الله رباطه. واجازه سراطه،

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شاس الجدامي السعدى الفقيه المالكي المنعوت بالخلال. كان فقيها فاضلا في مذهبه عارفا بقواعده له كتاب " الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة" وهو في مذهب الامام مالك. كان مدرسا بمصر. توفي ٦١٦ (وفيات الاعيان ٢/٢٦٢)

(٢) هو نفسه عبد الله بن شاس، وقد سبقت ترجمته (ص ٨٨، ١٠٨)

(٣) ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم. "سورة ابراهيم ١٤/ ٣٧

وحاط به الاسلام وحاطه، ورجح رايه حتى لا يرجو العدو سقاطه.

ومن اخرى : ادام الله سلطان مولانا وحفظ الاسلام بيده. وجعل الدنيا بسؤوده، ووكل النجح بمقصده، ونقع غليل كل امل بمورده.

٩٣

وكتب

ادام الله ايام مولانا وروح سرّه، واراه ما سره. وهون (٢٩٨) عليه المشقات، وضاعف له المثوبات، وتقبل منه القربات، وكشف به عن وجوه المسلمين الكربات. وشكر جهاده واجتهاده، واصلح مبدأه ومعاده، وجعل التوكل عليه ذخيرة رايه وعتاده. واغناه ولا افقره الا اليه، وآمنه ولا اخافه الا منه فلذلك خوف يعود بالامان عليه. مولانا يعلم ان حصار البلاد يحتاج الى شروط اولها كثرة العساكر ونشاطها، وثانية ملازمة المنازلة واحترازها واحتياطها. وعرف في هذا الوقت هجوم فرنج كوكب على المتارس واحراقها، واستقلالهم لرجال اليزل [1] وكرامة الله لمن استشهد منهم فوصل الى صدور الناس من ذلك ما ضيقها، واطلق السنتهم (٢٩٩) بالدعاء للسلطان واستنطقها. وحرمة السلطان عظيمة، وسمعة ملك الاسلام معلومة. وامتناع هذا الحصن يمنع غيره. والآراء سهام تخطيء وتصيب ولكن المقادير تنقاد اليها الآراء وما هذه المحقرات بحمد الله مما نقل النعل منه، ولا مما يصنع له صفحة، ولا يغير له في الاجتهاد نية، ولا مما يحدث لعرضته العالية ملالة ولا فترة. بل هي محركات عزائم اجتهاده، ومرهفات همم جهاده، فقد يجعل الله تعالى القليل من الخسارة سببا للكثير من الربح، وقد يزيد موقع التعسر في حسن موقع الفتح. ولينصرن الله من ينصره وعدا لا يخلفه الله [2] ولا يصرفه. ان شاء الله تعالى (٣٠٠)

---

(١) ربما كانت اليزك : وهي تعني الحراس الذين يمنعون الناس من الدخول الى المدينة او الخروج منها. . (دوزى).

(٢) "ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد" (سورة العمران ٩/٣).

فصل شفاعة في رجل مقرىء.

كان رأى مولانا ان ينعم عليه بما يجيب فيه مسألة ذلك الشيخ الفاضل ، والرجل الكامل . بل ما يشفع فيه كتاب الله الذى حمله لا كتاب شيخه الى المملوك الذى احتمله. فكفى بكتاب الله رسولا شافعا ، وكفى بكرم مولانا مجيبا سامعا .

٩٤

كتاب

المملوك يقبل الارض امام المجلس العالي لا زالت عزماته في الله رشيدة ، وسهام مقاصده في ابتغاء ما عند الله سديدة ، وغاية امله قريبة وغاية عمره بعيدة ، ووطأته على اولياء الله خفيفة وعلى اعدائه شديدة . وينهى ان العلم محيط بما جرى لشرف الدولة بن زيد العسقلاني من شرى اسارى الفرنج وما اعقبه متجره (٣٠١) المرجو الربح من الانكسار والخسران ، وانه هلك منهم من اشتراط تعويضه فصبر منتظرا لاوقات الامكان ، واجمل فيه الطلب واثقا بوفاء شروط السلطان . وفي كل يوم يهلكون واحدا بعد واحد وتتضع قطائعهم كما قال ابو الطيب المتنبي :

فهن لدينا ملقيات كواسد [1]

وهو بالحقيقة اسيرهم وان كانوا اسراه ، وان غلت بالحديد ايديهم فقد غلت بالفقر يداه . وحق نعمة المولى لقد توالت عليه امور اوقفت دولابه ، وخالفت حسابه نكبات الدهر منها بما اصابه . وامتحن بسر من البلوى ، لا يفرجه جهر من الشكوى ، وفرط من يده مال (٣٠٢) نقله من غنى الى فقر ، ومن حالة شكر الى حالة صبر . وجمهور حاله الآن انما هو اثمان هؤلاء الاسارى ومعلوم ان مولانا لم يبعه الا على انه يبيعهم ، وان المذكور ما حفظ على بيت

---

(١) من بيت للمتنبي :

تبكي عليهن البطاريق في الدجى وهن لدينا ملقيات كواسد

(ديوان المتنبي ص ٣٢٠ ، دار صادر دار بيروت) .

وعرائكم

المال ماله على انه يضيعهم . وما قصر منذ اشتراهم في تنفيذهم بالبيع ولكن جلود الفرنج خشنة ،وعرائكم غير مذعنة . وصبرهم على البلاء زادهم الله منه امارته ظاهرة ،وعذاب الله بهم يحيط في عاجلة الدنيا وآجلة الاخرة . وقد فسح لشريكه في البيع ورغب الان في الفسحة فيما فسح لشريكه فيه ،ودعته الضرورة والحاجة الى ان وضع القطائع التي كان قطعها (٣٠٣) وهو فقير الى عدل من نظر مولانا يخلصه من اسرهم ،ويقيله العثرة في امرهم . وان كان خلاص هذا النفر اليسير زائدا في عدد العدو اللعين فان النفوس التي يخرجون بها غير النفوس التي دخلوا بها . فالاسر ذل ما بعده عزة ، واثر السلسلة يمنع معاطف الهزة . والملسوع يفزع من الحبل ،والجريح يعلم ان الجراح باب القتل . ومكان انتفاع المملوك به في الغربة التي تطاولت، والامراض التي تداولت . يقتضي ان يتأتى لنفعه وان يشفع له الى من اغنى الخلق عن مطالبهم بكرم طبعه ورايه العالي .

٩٥

كتاب آخـر

(٣٠٤) رفع الله منار الاسلام ،وادام نضارة الايام ،ببقاء مولانا وابقاه لهذه الدنيا سترا على الاسلام والمسلمين ،واقدمه عليه بعد اطول عمر يقدم اصحاب اليمن ،واسمع اعداء الاسلام الشاكين تلاوة صليل سيفه ان هذا الحق اليقين. قد دخل الناس بمولانا في دين الله افواجا ،وانجلت ظلمات الباطل عن الحق لما اضاء سيفه سراجا . فلا عدمه الاسلام مرشدا اليه ،وحانيا عليه . ومتمما لانواره ،ومظهرا لشعاره ،وعامرا لداره ،وآخذا بثاره . ومرضي الطريقة المؤدية الى الجنة ،ومميتا للبدع ومحييا للسنة . (٣٠٥) ومن بيوت قبط مصر بيت ابن الكتامة وكانت لهم تصرفات جليلة ،واحوال جميلة ،وثروة معلومة غير مجهولة . وقد اسلم الان واحد منهم فزع عن قلبه ،واستقام على نور من ربه . وهو مستحق لسهم الفقر والمسكنة وسهم الغارمين وبني السبيل ،واسهم العاملين عليها[1] ولا يستثنى من الثمانية ان

---

(١) "انما الصدقات للفقراء والمساكين . . . والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكم" (سورة التوبة ٩/ ٦٠)

يكون الاستحقاق بها الا سهم المؤلفة قلوبهم [١] فان الله هداه طوعا ،وجعل اسلامه استسلاما . فان رأى مولانا ان يوعز بتقرير رزق له اما عن خدمة منفصلة ،واما بصدقة متصلة . فانه ادام الله سلطانه الواسطة بين الله وعباده في ارزاقهم ،والوصي لابيهم عليه السلام في ايصالهم الى استحقاقهم . والامر اعلى . (٣٠٦)

٩٧

٩٦

كتاب

يقبل الارض من بين يدى مولانا الملك الناصر ادام الله وقايته ،ونصر الاسلام رايته ،وجعل الجنة بعد بلوغ الغايات غايته ،وامتع الامة بولايته الى مقتضيهم ولايته . وينهى ورود كتاب مظفرى اليه يذكر فيه انه سير صاحبه عز الدين [٢] لابتياع الشعراء من بيت المال ليكون قد اتى البيوت من ابوابها ،وملك رقبة هذه الاملاك من مالك رقابها ،ويسأل في الانعام عليه بعمان بيعا لينشرها بعد الدثور ،وينقلها مما للخراب من الوحشة الى ما للعمارة من الانس والنور . واكثر ما يبتاعه هذا المولى نفقة في سبيل الخير ومفانمه ، وطرق (٣٠٧) النفع ومعالمه . فما يدخرها للاعقاب ،ولكن يدخرها للثواب . ورغب الى المملوك في ان يصل رسوله بهذه الخدمة لتكون صلة لمطلبه ،وطريقا الى ما ينعم به على مستصحبه . فامتثل المملوك الامر ،وعرض هذه الرغبة على كرمه الغمر.

---

(١) "انما الصدقات للفقراء والمساكين ... والمؤلفة قلوبهم ... في سبيل الله وابن السبيل ..." (سورة التوبة ٩/٦٠)

(٢) ابو المظفر مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب اربل الملقب عز الدين . كان مقدم الجيوش ايام اخيه فازى . وقد جهز جيشا عظيما لمحاربة صلاح الدين بعد ان خرج من الديار المصرية على اثر وفاة الملك العادل نور الدين محمود ، ولكنه انكسر . ولما توفي سيف الدين اخ عز الدين استقل هذا بالملك من بعده وكذلك حضرت الوفاة ابن عمه الملك الصالح فاوصى له بمملكة حلب سنة ٥٧٧ ،وكان دائما يخاف جانب صلاح الدين . توفي ٥٨٩ وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية ،ولما توفي دفن فيها . (وفيات الاعيان ٤/ ٢٩٠ — تحقيق محمد عبد الحميد — مكتبة النهضة المصرية)

٩٧

كتاب

المملوك يقبل الارض بين يدى مولانا الملك الناصر ادام الله نصره ، وجعل عليه رقيبا من التقوى يحفظ سره وجهره . ولا زال يحسن خلافة الاباء في اولادهم ، حتى يجعل ايام مصائبهم ايام اعيادهم ، وحتى ينسيهم بحلاوة انعامه مرارة افتقادهم . نهى المملوك وصول (٣٠٨) عين الدولة ولد شرف الدين مرعش الى دمشق بوالدته وجماعة من اهله لائذا بمراحم المولى وعواطفه ، وما عود الخلق من الخلق الكريم الذى لا يسترجع عوارى عوارفه . معترفا انه كان فيما اجرى اليه من تلك الهنات غالطا ، وانه بالامس قد كان في ليل الشباب خابطا ، ومثل هذا الجنس لا يعدم من قرناء السوء مخالطا . والمرء مقتد بقرينه [1] وشباب المرء شعبة من جنونه . وهو تائب والله يقبل التوبة عن عباده ، مذكر للمولى عزمة ابيه المشفعة في اولاده . ووصل الى المملوك كتابا المملوك علم الدين (٣٠٩) سليمان [2] والملك المظفر يرغبان الى المملوك في ان يصل شفاعتهما بشفاعته ، وبأن يعضد ضراعتهما بضراعته . وان يقبل المولى توبته ، ويقيل عثرته ، ويرحم عزته . ويحتسب اجريه على الله تعالى لما غضب عليه مثقفا ، ولما رضى عنه مسعفا . فهو ادام الله سلطانه محسن حتى في غضبه ، ماخوذ من ماله مأخوذ بادبه . والرأى اعلى ان شاء الله تعالى .

٩٨

ومن كتاب

ادام الله دولته ، ومكن صولته ، وانفذ من الاعداء سطوته ، وسبب لاوليائه نعمته . ينهي انه بعدما طالع به من خاله خف بلطف الله ما كان يجده ، وجاء من فرج الله سبحانه ما كان يؤمله ويعتقده . (٣١٠) والله تعالى المشكور بلسان المولى فانه اشرف الالسنة

(١) من بيت لطرفة بن العبد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

(الديوان ص ٦١ تحقيق كرم البستاني ، مكتبة صادر — بيروت)

(٢) هو علم الدين سليمان بن جندر كما ورد اسمه في مفرج الكروب . وقد توفي سنة ٥٨٧ ، وهو شيخ الدولة وكبيرها . وصاحب عزاز وبغراس . كذلك كان من اكابر امراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية . (مفرج الكروب ٢ / ١٨٣ ، ٣٨٠ ، ٣٤٩) (النجوم الزاهرة ج ٦ / ١١٣)

واطهرها ، وقلبه المبارك فانه اقرب القلوب بذكره واعمرها .

فصل : وهذه بشرى قد نطق بها لسان العصر ، واسفر عنها وجه الدهر . والله تعالى المشكور يؤلف بين قلوب المسلمين في جهاد عدوهم الكافر ، هذا الدين الذى ضمن نصره بسيوف الملك الناصر . ان شاء الله تعالى .

فصل : نشر الله عدله ، واسبغ ظله ، ووصل حبله ، وكرّم نجره [1] ونجله ، واجرى نصره ونصله ، واغمد الكفر بالسيف الذى سله ، واكد عقد الايمان بعقد الكفر الذى حله . وكسف به المظالم ، وخسف به المآثم . وينهى انه قصد من مصر (٣١١) الى دمشق جماعة مرحومة ، ونفقاتهم قليلة ، ولهفتهم شديدة ، ومظلمتهم فظيعة ، والعين في زمن العدل في الجور غبينة . فلو رأوا سواهم لاقتدوا ولكنهم في البلاد بلا اسوة . وقد جعل المملوك كشف مظلمتهم واغاثة مستغيثهم من ادوية مرضه ، وفرج كربه ، الذى يعلم ان المولى يوفره له وينعم به عليه ، لو كان في يديه . وهولا اهل بلد اخيار ، ومساتير وتجار ، ومقيمون وسفار ، وصعب ان ينتجع العدل من اقصى الصعيد الى اقصى الشام . فكشف المظالم ، ادام الله ايام مولانا يقدم قبل مباشرة (٣١٢) الملاحم ، وتطهير الصحائف ، يقدم بين يدى حضور المواقف ، ومهما نقيت الاعمال وابيضت كانت الصحائف مصاحف .

٩٩

فصل : من جواب الى ابن المقدم وان كان قد ذكر بالمولى الشهيد السعيد رحمه الله تذكارا امترى الشؤون ، وامتار ذخائر العيون ، وصعد الانفاس ، وجدد الأسى والوسواس ، فنضر الله تلك الشيبة الكريمة الخضاب بدمها ، وتلك الغرة الوجيهة الوجه بكرمها ، ولا يشك الخادم في شرف وفادتها على الله وفضل مقدمها ، وجعل اللهفي المجلس العزيز الخليفة فيه ، فلولاه كان معوزا ، وسد به خلة المجد فلولا وجوده لكان سدها بعد ذلك المولى معجزا (٣١٣) .

---

(١) كرم اصله وحسبه .

فصل : وهو ادام الله نعمته يبني كما بنت اوائله ، ويشيد المجد الذى بنيت بيد الله ووالده رحم الله منازله ، ومما اكد فضله وزاده ، ورفع محله وشاده ، شك الاجل عماد الدين لهمته ، ووصول كتبه باخبار مرؤته ، والثناء على شجاعتي يده والقلم منها موقعا ، والسيف منها موقعا ، وذكر بالاتساع همته في الهمم ، وتبريز سبقها في الباس والكرم ، فالله سبحانه يزيده من مواهبه ، ويوكل للنجاح بمدّاليه ، وينفع به الاسلام واهله ، ويتم نعمته عليه كما اتمها على ابويه من قبله ، والرأى السامي مسؤول في المواصلة بكتبه والتشريف بمراسمه لا يزال سائله منجحا وامره مسمحا .

١٠٠

(٣١٤) ومن اخرى : المملوك يقبل الارض امام المجلس العالي جعل الله الارض لسهامه مهدا ومهادا ، واقر به الارض حتى تصير كلها بالاسلام انشازا [1] بعد ما كانت بالكفر وهادا ، ودامت عقائل النصر اليه تهدى وتتهادى ، وسلط الله خيله على بلاد المشركين حتى لا يفرقوا في الكرة والعطل بينهما جردا وجرادا ، وننهى انه يطالع بكل غث وسمين ، وبكل مشكل ومبين ، وبكل شك ويقين ، فانه حامل فقه الى من هو اوعى ، ومقوم نقد الى من هو به اولى .

فصل : والله تعالى قد عود المولى في كل حين سعة ، وعقبى كل تعب دعة ، وكلما عظمت مشقة المولى بدر ديوانه وكلما زادت كلفة قد مهدت له درجات الجنات وازفت غرفه (٣١٥) فلا يضجر مما يكسب اجرا اليه اجرى ، وليهنه انه يستطيع الصبر على ما لا يستطيع عليه مخلوق صبرا .

فصل : لا زالت الارض به مطمئنة باهلها ، منتظمة عساكره لوعرها وسهلها ، مشمولة وهم بفضل سيرته لا خلوا من فضلها ، ولا ضحوا من ظلها ، ولا حت بحارتها الزاخرة غرقة في السير سحائب ظلها .

---

(١) انشازا : جمع نشز ، المكان المرتفع .

فصل : والثغور لا تحتمل اجوبتها المماطلة، ولا غربيها المدافعة، فانها مـــا سميت ثغورا الا لتسد ، وما سميت رسلها بردا الا حتى لا ترد .

فصل : وفلان يطلب كذا وكذا والذى يؤخذ منه اكثر من الذى يعطى وقــــد اضاف النسب الى السبب والعزمة الى اللحمة (٣١٦) ونهض واغنى ووفى وكفى واعجــب وانجب وابر جذعه على المذاكي القرح ، وخفت عزماته بين يدى المولى فجاءت العرفات ما بين الحسرى والطلح ، ثم انه نشوء تأديب مولانا وتخريجه ، ما امطر روضه الا سحابه ولا انبت خطيه الا وشيجه[1] .

---

(١) وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتزرع الا في منابتها النخل